من بلاغة التذييل بالخبر
في سور (آل حم)
سورة الزخرف أنموذجا

إعداد

د. آمال يوسف المغامسي

أستاذ البلاغة المساعد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

بجامعة طيبة بالمدينة المنورة

من بلاغة التذييل بالخبر في سور (آل حم) سورة الزخرف أنموذجا

آمال يوسف المغامسي

قسم البلاغة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة بالمدينة المنورة.

البريد الإلكتروني: **Ameam5y@gmail.com**

المستخلص:

استهدف البحث دراسة التذييل المسوق بالأسلوب الخبري في القرآن الكريم، متخذًا سورة الزخرف أنموذجًا، لأن الأسلوب الخبري – بتنوع أضربه (الضرب الابتدائي، والطلبي، والإنكاري)، وبما فيه من تجاوز للخبر في كثير من المواطن لغرضيه الأصليين: (الفائدة، ولازم الفائدة) إلى أغراض بلاغية متنوعة – يثري دلالات جملة التذييل، ويجعل المعنى حاملًا لفائدتين: الفائدة الأصلية المتمثلة في الصياغة الخبرية للمعنى المفيدة للعرض والتقرير، وما يترتب على اختيار هذا الأسلوب من لطائف بلاغية، والفائدة التوكيدية الناجمة عن التوكيد المتولّد من جملة التذييل، وعن بعض أضرب الخبر وما يكتنفها من مؤكدات كذلك.

وقُسّم البحث إلى تمهيد تناول شرح المصطلحات الواردة في عنوانه، ومبحثين تطبيقين: درس الأول منهما نماذج من التذييل بالخبر في سورة الزخرف، ودرس الثاني منهما علاقة جمل التذييل في الزخرف بعضها ببعض، وكذلك علاقة بعض جمل التذييل في الزخرف ببعض جمل التذييل في أخواتها من سور (آل حم).

الكلمات المفتاحية: التذييل، الخبر، الزخرف، آل حم.

From the rhetoric of the appendix to the news in the wall (Al-Ham) surat al-Dénéré is a model

Amal Youssef Al , Magamsi

Department of Rhetoric at the Faculty of Arts and Humanities at Taiba University in Medina0

E-mail: Ameam5y@gmail.com

Abstract:

The research aimed at studying the appendix marketed in alkhabar in the Holy Quran, taking Al-Zakhrif sura as a model, because alkhabar - with the variety of strikes (initial beating, student, and denial), and in addition to overcoming alkhabar in many citizens for its original purposes: (Interest and interest) for a variety of rhetorical purposes, enriches the connotations of the appendix sentence and makes the meaning carry two benefits: the original benefit of the wording of the useful meaning of the presentation and report, the resulting choice of this method of rhetorical sects, and the confirming benefit of The emphasis generated by the appendix, and some of alkhabar strikes and the certainty that it is also confirmed.

The research was divided into a preface to explain the terms contained in the title of the research, and two applications: the first studied the models of the appendix with alkhabar in surat Al-Zakhrif, and the second studied the relationship of the appendix sentences in the decoration to each other. as well as the relationship of some of the appendix sentences in the decoration with some of the appendix sentences in her sisters from sur (Al-Ham).

Keywords: Appendix, Alkhabar, Al-Zakhrif, AlHam**.**

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيُعدّ التذييل وسيلة من وسائل إرداف المعاني بما يمكّن لها ويحققها، ويكسبها تأكيدًا، وقوة، وثباتًا في النفوس، وبما يكون بمنزلة الدليل المؤدي لتحقيق الإقناع بمضمونها، أو تأكيدها عن طريق بيان العلة فيها، أو عن طريق زيادة إيضاحها، أو غير ذلك. وتزداد قيمة التذييل بروزًا من خلال انسجام جملة التذييل مع الجملة المذيَّلة، وانصهارها معها، ومع النص كاملًا في وحدة لغويّة واحدة.

وهدف البحث إلى دراسة التذييل المسوق بالأسلوب الخبري في القرآن الكريم؛ لأن الأسلوب الخبري – بتنوع أضربه (الضرب الابتدائي، والطلبي، والإنكاري)، وبما فيه من تجاوز للخبر في كثير من المواطن لغرضيه الأصليين: (الفائدة ولازم الفائدة) إلى أغراض بلاغية متنوعة- يثري دلالات جملة التذييل، ويجعل المعنى حاملًا لفائدتين: الفائدة الأصلية المتمثلة في الصياغة الخبرية للمعنى المفيدة للعرض والتقرير- وما يترتب على اختيار هذا الأسلوب من لطائف بلاغية-، والفائدة التوكيدية الناشئة عن التوكيد المتولِّد من جملة التذييل، وعن بعض أضرب الخبر وما يكتنفها من مؤكدات كذلك.

ووقع اختيار البحث على سورة قرآنية كريمة لم يقف على دراسات سابقة درست التذييل فيها لتكون ميدانًا تطبيقيًّا له، وهي سورة الزخرف، تلك السورة المكية الحافلة بمجادلة المشركين، والتنديد بهم، وتسفيه آرائهم،

وتفنيد معتقداتهم، والردّ على مزاعمهم الباطلة، والبرهنة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم، وكل هذه معانٍ تقتضي التوكيد والتقرير، وكان التذييل المصاغ بالأسلوب الخبري وسيلة من وسائل التوكيد المستخدمة في السورة الكريمة.

وعمل البحث على استقراء مواضع التذييل بالخبر في سورة الزخرف أولًا، ثم حلل نماذج منها، تحليلًا بلاغيًّا؛ بغية الوقوف على ما اكتنزه التذييل في هذه المواضع من بلاغة معجزة، وما حققه من توكيد في السياق الذي ورد فيه، وبغية الوقوف كذلك على بعض ما اكتنفته جمل التذييل الخبرية من لطائف بلاغية.

كما عمل البحث على بيان أثر التذييل في تماسك البناء الداخلي للسورة الكريمة، وتآلف بنيانها.

ولما كانت سورة الزخرف إحدى سور مجموعة (آل حم)، كان من المناسب التطرق إلى بيان بعض العلاقات التي تربط بين بعض الجمل التذييلية في الزخرف، وبعض الجمل التذييلية في أخواتها من سور (آل حم).

وبناء على ذلك قُسّم البحث إلى: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، تقفوهما خاتمة.

التمهيد: وفيه:

- مفهوم التذييل وبلاغته.
- مفهوم الخبر وبلاغته.
- بين يدي سور (آل حم).

- بين يدي سورة الزخرف.

المبحث الأول: من بلاغة التذييل بالخبر في سورة الزخرف.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التذييل بالخبر في المقطع الأول: (من آية١ إلى آية ٢٥).

المطلب الثاني: التذييل بالخبر في المقطع الثاني: (من آية ٢٦ إلى آية ٥٦).

المطلب الثالث: التذييل بالخبر في المقطع الثالث: (من آية ٥٧ إلى آية٨٩).

المبحث الثاني: من بلاغة الترابط والتناسق بين جمل التذييل في الزخرف، وبينها وبين جمل التذييل في أخواتها من سور (آل حم).

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أثر التذييل في ترابط البناء الداخلي لسورة الزخرف.

المطلب الثاني: التذييل بالخبر بين الزخرف وأخواتها من سور آل حم.

الخاتمة: تضمنت أهم النتائج، ثم قائمة بمصادر البحث ومراجعه.

والله أسأل التوفيق والسداد.

تمهيد

- **مفهوم التذييل وبلاغته:**

التذييل عند أهل البلاغة ضرب من ضروب الإطناب، والإطناب مقام من مقامات الكلام الثلاثة: الإيجاز، والإطناب، والمساواة، تدور معانيه في اللغة (أي: الإطناب) حول الطول والثبات، إذ هو مشتق من الطّنَب، وهو واحد أطناب الخيام، وهي حبالها الطويلة التي تشد بها، وأطْنَب في الكلام بالغ فيه، وأطْنَب بالمكان أقام[(١)].

أما في اصطلاح البلاغيين فالإطناب: "زيادة اللفظ عن المعنى لفائدة"[(٢)]، وقُيدت الزيادة بالفائدة للتفريق بين الإطناب والتطويل الذي تكون الزيادة فيه لغير فائدة.

وله صور عدة، قعّدها القزويني، وقّسمها إلى: الإيضاح بعد الإبهام، وعطف الخاص على العام وعكسه، والإيغال، والتتميم، والتكميل، والاعتراض، والتكرير، والتذييل.[(٣)]

---

(١) ينظر: لسان العرب، والقاموس المحيط، ومعجم مقاييس اللغة، مادة: (طَنَب).

(٢) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الفجالة. القاهرة، دار نهضة مصر، ٢/٢٨٠، وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: محمد الفاضلي، بيروت، المكتبة العصرية، ط الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص ١٧٥.

(٣) ينظر: الإيضاح، ص ١٩٠-٢٠٣.

أما التذييل فأصله في اللغة من الذّيل، والذّيل: ما أُسبل وأصاب الأرض من الرداء والإزار، وآخر كل شيء، ومنه ذيل الريح، وهو ما انسحب منها على الأرض،[١] أي أن معاني التذييل في اللغة تدور حول الزيادة، والتأخر.

وفي اصطلاح البلاغيين التذييل هو: "إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكد عند من فهمه"[٢] -كما عند العسكري- وعرّفه ابن سنان بأنه: "العبارة عن المعنى بألفاظ تزيد عليه"[٣]، وجعل ابن أبي الأصبع التذييل لونًا من ألوان البديع - بمفهوم البديع المتسع الشامل الذي كان سائدًا آنذاك- وعرفه بأنه: "أن يذيّل المتكلم كلامه بجملة يتحقق فيها ما قبلها من الكلام، وتلك الجملة على قسمين: قسم لا يزيد على المعنى الأول، وإنما يُؤتى به للتوكيد والتحقيق، وقسم يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق ما قبله"،[٤] وبنحو ذلك عرّفه القزويني الذي قال: التذييل هو: "تعقيب جملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد"[٥].

---

(١) ينظر: العين، ولسان العرب، ومعجم مقاييس اللغة مادة (ذيل).

(٢) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية ،١٤١٩هـ، ص٢٩٤.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م، ص ٢١٩.

(٤) تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، ص ٣٨٧.

(٥) ينظر: الإيضاح، ص١٩٤.

ويستفاد من التعريفات السابقة -على تفاوت ما بينها في الدقة والبيان، والإيجاز والتعميم-: أن التذييل يأتي بعد تمام الكلام وحسن السكوت عليه، وأنه يكون بالجملة، وأن الغرض منه التوكيد والتحقيق، وأنه يرد في الشعر كما يرد في النثر.

ويلاحظ أن بعض التعريفات حددت مقدار المُذيَّل بالجملة -كما عند القزويني- وبعضها لم تحدده بمقدار -كما عند ابن أبي الأصبع - مع اشتراط تمام الكلام.

وقسم البلاغيون التذييل إلى قسمين، من وجهين، فقُسّم بالنظر إلى قابلية جملة التذييل للاستقلال بمعناها عن الجملة السابقة لها إلى: تذييل جار مجرى المثل، وتذييل غير جار مجرى المثل، وقُسّم بالنظر إلى التوكيد الذي يفيده التذييل إلى: تذييل يؤكد منطوق الكلام، وتذييل يؤكد مفهوم الكلام.(١)

أما عن قيمته البلاغية فمن أشهر ما قيل في ذلك ما ذكره أبو هلال العسكري في معرض حديثه عن التذييل وتعريفه له، إذ يقول: "وللتذييل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنى يزداد به انشراحًا والمقصد اتضاحًا. وقال بعض البلغاء: للبلاغة ثلاثة مواضع: الإشارة، والتذييل، والمساواة ... وينبغي أن يُستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة؛ لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد

(١) ينظر: الإيضاح، ص ١٩٤-١٩٦، والطراز، يحيى بن حمزة العلويّ، بيروت، المكتبة العصرية، ط الأولى، ١٤٢٣ هـ، ٦١/٣.

توكّد عند الذهن اللقن، وصحّ للكليل البليد"[١].

فبلاغة التذييل تكمن في تمكين المعنى وتوكيده، وإبراز معنى النصّ الذي وردت فيه جملة التذييل، وكذلك في مناسبته للاستعمال لمخاطبة جمهور الناس على اختلاف كفاياتهم المعرفية، فهو ضرب من التعقيب لما سلف، يُقصد منه إفهام غير الفاهم، وتقديم الدليل للفاهم -كما أشار العسكري- فضلًا عن كونه يلخص معنى الجملة المذيَّلة بعبارة مكثفة، تتسم بالعمومية غالبًا.

- **مفهوم الخبر وبلاغته:**

الخبر في اللغة: النبأ، ويُجمع على أخبار، والخبر: العلم بالشيء، وخبرت بالأمر: أي علمته،[٢] أما في الاصطلاح: فتعرض له بالتعريف الاصطلاحي طائفة من علماء اللغة والأصول وعلوم القرآن والمنطق، ومنهم- على سبيل المثال- الإمام السيوطي الذي نقل في الإتقان طرفًا من هذه التعريفات والإشارات دون تبني تعريف منها، أو إيراد تعريف جديد خاص به[٣].

أما البلاغيون فتناولوا مفهوم الخبر بوصفه أحد قسمي الكلام، وعرفوه بتعريفات متقاربة، من ذلك قول قدامة بن جعفر في تعريفه: "الخبر كل قول

---

(١) كتاب الصناعتين، ص ٣٧٣.

(٢) ينظر: القاموس المحيط، ومعجم مقاييس اللغة، مادة (خبر).

(٣) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٤م، ٣/ ٢٥٦-٢٥٧.

أفدت به مستمعه مالم يكن عنده".[١]وقول القزويني مستعرضًا آراء العلماء في تعريف الخبر وفي مسألة صدقه وكذبه: "اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما، ثم اختلفوا، فقال الأكثر منهم: صدقه مطابقة حكمه للواقع، هذا هو المشهور وعليه التعويل. وقال بعض الناس: صدقه مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابًا كان أو خطأ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له".[٢]وقول العلويّ في تعريف الخبر والإنشاء: "اعلم أن الخبر والإنشاء متضادان، لأن الخبر ما كان محتملًا للصدق والكذب، والإنشاء ما ليس يحتمل صدقًا ولا كذبًا".[٣]

أما السكاكي فعرض أقوال السابقين من أهل الكلام في تعريف الخبر مثل النظّام والجاحظ وناقشها، وأشار إلى اختلاف المعنيين بالخبر والإنشاء في حاجتهما للتعريف الحدّي أو غناهما عن ذلك، وسرد عددًا من التعريفات التي ذهب إليها من قبله مثل قولهم: "الخبر هو الكلام المحتمل للصدق والكذب، أو التصديق والتكذيب، وكقولهم: هو الكلام المفيد بنفسه إضافة أمر من الأمور على أمر من الأمور نفيًا أو إثباتًا –بعد تعريفهم الكلام بأنه المنتظم من الحروف المسموعة المتميزة– وكقول من قال: هو المقتضى بصريحه نسبة معلوم على معلوم نفيًا أو إثباتًا"،[٤]وانتهى إلى موافقة

---

(١) نقد النثر، قدامة بن جعفر، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، ص ٤٤.

(٢) الإيضاح، ص ٢٥.

(٣) الطراز، ١٦٢/٣.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م، ص٢٥٢.

القائلين بعدم حاجة الخبر والطلب إلى التعريف الحدّي.

إذن ينحصر الخبر عند جمهور البلاغيين في القول المحكيّ، ويُحكم على صدقه وكذبه بناء على مطابقته للواقع أو عدم مطابقته، بالنظر لذات الخبر وليس بالنظر لقائله، وهو ما يُفهم من القيد الذي أضيف للتعريف بقولهم هو: "المحتمل للتصديق والتكذيب لذاته"،[(١)] ليخرج بهذا القيد الخبر الذي لا يحتمل إلا الصدق لاعتبار يتعلق بالمخبِر من حيث إنه لا يقول إلا حقًا، كخبر الله تعالى في كتابه، وما ورد من أخبار صحيحة عن نبيه صلى الله عليه وسلم، والحقائق العلمية الثابتة، ويخرج بذلك أيضًا الخبر الذي لا يحتمل إلا التكذيب، مثل ما ورد عمّن عُرف بالكذب مثل مسيلمة الكذاب ومن أشبهه.[(٢)]

وللخبر غرضان رئيسان هما: فائدة الخبر، ولازم الفائدة. والمقصود بفائدة الخبر استفادة المخاطَب الحكم الذي تضمنته الجملة إذا كان جاهلًا له، والمقصود بلازم الفائدة استفادة المخاطَب علم المتكلم بما يعلمه المخاطَب.[(٣)]

ويستفاد الغرض الأول الذي هو فائدة الخبر "من ذات الخبر، وما عداه من الأغراض يدل عليها الخبر دلالة تبعية، فهي من مستتبعات الكلام،

(١) الفروق، شهاب الدين القرافي، عالم الكتب، د.ط، د.ت، ١٨/١.

(٢) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم، ص ٢٥٤.

ولا توصف بأنها حقيقة ولا مجاز ولا كناية"[(١)]، فـــ"البلاغي لا يهمه وصف بناء الجملة وتركيبها، وإنما يهمه البحث في سر تكوينها، وعمّا يمكن أن تؤديه من معنى وجودها، وهي مقدمة أو مؤخرة، معرفة أو منكرة، معطوفة أو مستأنفة، خالية أو مؤكدة"[(٢)]، ومن هنا جاء اهتمام البلاغيين ببيان الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الخبر أو الإنشاء، فساقوا عددًا من الأخبار التي خرج فيها الخبر عن غرضيه الأصليين: (الفائدة، ولازم الفائدة) لأغراض أخرى بلاغية تفهم من السياق وقرائن أحواله، مثل: إظهار التحسر، وإظهار الفرح،وإظهار الضعف والخشوع، وغيرها من الأغراض.[(٣)]

وتتعدد صور تعبير الخبر عن المعنى، وطرائق تقديمه إلى المتلقي، إذ يأتي الخبر كما ذكر البلاغيون على ثلاثة أضرب بالنظر إلى حال من يلقى إليه الخبر:[(٤)]الخبر الابتدائي، ويقدم للمخاطَب خالي الذهن من الحكم الذي أفاده الخبر، ولذا يستغني عن المؤكدات، والخبر الطلبي الذي يقدم للمخاطَب المتردد في قبول الخبر أو الشاكّ، ويستحسن تأكيده بمؤكد واحد، والخبر

---

(١) بغية الإيضـــاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصـــعيدي، مكتبة الآداب، ط ١٧، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ٤١/١.

(٢) الجملة الخبرية والجملة الطلبية تركيبًا ودلالة، حفيظة أرســلان، الأردن، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٤م، ص١٢.

(٣) ينظر: بغية الإيضاح، ٤١/١.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، ط الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، ٣١٥.

الإنكاريّ ويقدم للمخاطَب المنكر، ويؤكد بأكثر من مؤكّد بناء على درجة الإنكار.(١)

على أن الخبر لا يجري دائمًا على مقتضى ظاهر الحال من حيث التأكيد والإثبات وتركه، فقد يخرج عن مقتضى الظاهر لوجود اعتبارات تدعو المتكلم لمخالفة الواقع وعدم الاعتداد به، فيُنزّل خالي الذهن منزلة الشاك أو المتردد فيُلقى إليه الخبر طلبيًّا، أو يُنزّل منزلة المنكر فيُؤكّد له الكلام بمؤكدين فأكثر إن بدا عليه شيء من علامات الإنكار، كما يُنزّل المنكر منزلة خالي الذهن فيُقدم له الكلام مجردًا من المؤكدات لعدم الاعتداد بإنكاره؛ لما في الكلام من دلائل على ما ينكره، لو تأملها لرجع عن إنكاره، إلى غير ذلك من الأحوال.(٢)

والتعبير بالخبر يختلف عن التعبير بالإنشاء، فالخبر هو الغرض الأساس من الخطاب، إذ يحكي الخبر عن معنى موجود، وحقيقة واقعة قبل اللفظ أو بعده، ومن هنا يأتي استخدامه محملًا بصفات التيقن والثبات، خاصة في أخبار القرآن الكريم المنزهة عن احتمالية الكذب، فضلًا عن إشارة الخبر في كثير من مواضعه إلى دلالات بلاغية واسعة غير مُصرَّح بها، يستشفها المتلقي من خلال السياق، وهو ما يثري المعنى، ويجعل المتلقي شريكًا للمتكلم في إنتاج هذا المعنى.

ولذا عدّ المهتمون بالبلاغة البحث في نوع الأسلوب الذي يختاره المنشئ للتعبير عن مراده بحثًا في عناصر العملية التواصلية الأساسية:

---

(١) ينظر: الإيضاح، ص ٣٠-٣١.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم، ص٢٥٩-٢٦٤.

(النص، والمنشئ، والمتلقي، والسياق)، فاختيار لفظ دون آخر، وتركيب دون آخر، وأسلوب دون آخر، من شأنه خلق الدلالة المرادة، ولذا نهضت الدراسات البلاغية للكشف عن العلاقة بين المعنى والتركيب، والمعنى والأسلوب، وهو ما دعت إليه نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني.(١)

- **بين يدي آل حم:**

هي سبع سور كريمة كلها مكية نزلت بمكة،(٢) قال صاحب البحر المحيط في بداية تفسير سورة غافر: "سبع الحواميم مكيات، ... وهذه الحواميم مقصورة على المواعظ، والزجر، وطرق الآخرة، وهي قصار لا تلحق فيها سآمة". (٣)

نزلت هذه السور الكريمة متتالية، مرتبة في نزولها على ترتيبها في المصحف الشريف، يقول هبة الله المقري: " وليس في كتاب الله تعالى سبع سور نزلت بالتأليف واحدة بعد الأخرى إلا الحواميم". (٤) أولها سورة غافر،

---

(١) ينظر: إيقاع الخبر والإنشاء في شعر مفدى زكريا، عبد الحميد بوفاس، مجلة العلوم الإنسانية، قسنطينة، الجزائر، جامعة الإخوة منتوري، العدد ٢٥، يونيو، ٢٠١٦م، ص ٧١-٧٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، بيروت، عالم الكتب، ط الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ٣٦٥/٤.

(٣) تفسير ابن حيان= البحر المحيط، محمد بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٠ هـ، ٢٣١/٩-٢٣٢.

(٤) الناسخ والمنسوخ، هبة الله المقري، تحقيق: زهير الشاويش، محمد كنعان، بيروت، المكتب الإسلامي، ط الأولى، ١٤٠٤ هـ ، ص ١٥٢.

ثم فصلت، فالشورى، فالزخرف، فالدخان، فالجاثية، فالأحقاف. وهي على هذا الترتيب في المصحف الشريف.

وسميت بالحواميم، أو(آل حم)، أو ذوات حم، لأن كل سورة منها افتتحت بـ (حم)، يقول الكرماني: "وسميت هذه السور السبع (حم) على الاشتراك في الاسم لما بينهن من التشاكل الذي اختصت به، وهو أن كل واحدة أُستفتحت بالكتاب، أو صفة الكتاب، مع تقارب المقادير في الطول والقصر، وتشاكل الكلام في النظام"(١).

ومما ورد في فضل هذه السور: قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "آل حم ديباج القرآن"،(٢)وقول ابن عباس رضي الله عنهما: "إن لكل شيء لبابًا، ولباب القرآن حم، أو قال: الحواميم".(٣)

أما عن الموضوعات المشتركة بين هذه السور، فقد درس الباحث عبد القادر الحمداني سور (آل حم) دراسة بلاغية تحليلية، وحاول استخلاص الموضوعات الرئيسة التي دارت حولها ووضعها تحت العناوين الآتية:

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، ١٠٣٧/٢

(٢) مختار الصحاح، أبو عبد الله الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ، بيروت– صيدا، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، ط الخامسة، ١٩٩٩م،٨٢/١.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، عمر بن عادل الدمشـــقي، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلى محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٩٩٨م، ٥/١٧.

(تنزيل القرآن وصفاته، النعم الإلهية، قصص الأنبياء والأمم السابقة، خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم، الإنسان والإيمان والكفر، مشاهد القيامة، قواعد إيمانية). (١)

- **بين يدي سورة الزخرف:**

سورة الزخرف سورة مكيّة، يبلغ عدد آياتها تسعًا وثمانين آية، وهي السورة الثالثة والأربعون بترتيب المصحف، والرابعة من سور (آل حم). سميت بالزخرف؛ لذكر الزخرف فيها – وهو الذهب والزينة– في سياق وصف بعض نعيم الدنيا الزائل، ومقارنته بنعيم الآخرة الدائم، والتحذير من الانغماس في متاع الدنيا والاغترار بها اغترارا صارفًا عن الحق.(٢)

ومقصود السورة العام كما ذكر الإمام البقاعي: "البشارة بإعلاء هذه الأمة بالعقل والحكمة حتى يكونوا أعلى الأمم في العلم وما ينشأ عنه شأنًا، لأن هدايتهم بأمر لدنيّ هو من أغرب الغريب الذي هو للخواص".(٣)

أما أهم مقاصد السورة الكريمة فهي:

-تشريف القرآن الكريم، والتنويه بعظمته وعلوّ مكانته(٤)**، وبيان أنه**

---

(١) سور الحواميم – دراسة بلاغية تحليلية، عبد القادر الحمداني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ٢٠١١م، ص ١١.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ١٥٧/٢٥.

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ٣٧٦/١٧.

(٤) ينظر: تفسير الرازي، فخر الدين الرازي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط الثالثة، ١٤٢٠ هـ، ٨٦/٥، والتحرير والتنوير، ١٥٧/٢٥.

منزل من عند الله، ودحض شبهات المشركين فيه، والوعيد لمن كفر به.

-إثبات الألوهية لله وحده، والتعجب من حال من اعترف بربوبيته وأنكر وحدانيته من المشركين.

-إبطال عقيدة كفار قريش في الملائكة الكرام، إذ جعلوهم بنات الله – تعالى الله عن ذلك-، وتنزيهه سبحانه عما نُسب إليه من اتخاذ الولد والشريك.

- تفنيد عدد من شبهات المشركين وشبهاتهم، والردّ عليها.

-التحذير من الاغترار بالدنيا ونعيمها والانسياق خلف بريقها الزائل، وتحقير متاعها، وبيان هوانها عند الله.

-التحذير من التمسك بالباطل والإعراض عن الحق، والتعلق بموروث الآباء والأجداد الذي ما أنزل به الله من سلطان لأجل عرض من الدنيا وزخرفها.

-الترغيب في الجنة ونعيمها الدائم، وبيان المقياس الحقيقي للتفاضل عند الله تعالى.

-عرض طرف من قصتَيْ نبيَيْ الله موسى وعيسى عليهما السلام؛ لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، وللاتعاظ والاعتبار بما حلّ بالكافرين من سوء العاقبة.[1]

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، إسماعيل بن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤١٩هـ، ٧/٢٠٠-٢٢٤، والتفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، السعودية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط٢، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩ م، ص ٤٨٩-٤٩٥.

المبحث الأول

من بلاغة التذييل بالخبر في سورة الزخرف

المطلب الأول: التذييل بالخبر في المقطع الأول: (من الآية ١-٢٥)

ورد التذييل بالخبر في عدد من المواضع في سورة الزخرف، محملًا بالكثير من اللطائف والأسرار البلاغية، متناسبًا مع موضوع الآية، ومع موضوع السورة الكريمة ومقاصدها.

ولغرض الدراسة قسمت السورة إلى مقاطع بناء على موضوعات السورة، مستأنسة في ذلك بكتب التفاسير، مثل: تفسير ابن كثير، وتفسير نظم الدرر للإمام البقاعي، والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم.

المعنى الإجمالي: يتضمّن هذا المقطع من السورة الكريمة بيان مكانة القرآن الكريم الفائقة، وشرفه في الملأ الأعلى، والحديث عن دلائل قدرة الله المبثوثة في أرجاء الكون، وتقرير وحدانيته -جلّ شأنه- بذكر صفات الربوبية المقتضية للألوهية، وتقرير عقيدة البعث والجزاء.(١)

كما تضمّن المقطع ذكر سفه المشركين وجهلهم الذي أفضى بهم إلى إشراك غير الله معه في العبادة، وبيان ما هم فيه من ضلال في العقيدة والعبادة والتصور جعلهم ينسبون إليه -سبحانه- البنات دون البنين، ويدّعون أن الملائكة المكرمين بنات الله دون دليل ولا برهان، وتضمّن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتذكيره بأن ما وقع له صلى الله عليه وسلم مع قومه قد وقع للرسل من قبله عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، فكان

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، ٧/٢٠٠-٢٠٤، والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف أ.د. مصطفى مسلم، الإمارات، جامعة الشارقة، ط الأولى، ٢٠١٠م، ٧/١٠٢-١٠٩.

الهلاك نصيب القوم المكذبين، الذين جعلهم الله عظة وعبره لمن خلفهم من الأمم. (١)

•التذييل الأول:

التذييل بقوله تعالى:﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤]، وهو تذييل على القسم بالقرآن وتعظيمه وتنزيهه في صدر السورة الكريمة، اشتمل على معنى الآيات السابقة وأكّد مفهومها، فكون القرآن الكريم معظم في الملأ الأعلى، ومصان ومحفوظ، تأكيد على أنه أهل لأن يُقسم به، ولأن يُجعل هو القسم والمُقسم عليه في آن واحد في مطلع السورة: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١ – ٣]، للدلالة على شرفه وإعجازه وبيانه، واشتماله على كل الشرائع والأحكام واللطائف بلسان عربي معجز ليس في طوق البشر، وبذلك تنقطع أعذار مشركي مكة وحججهم(٢)، فالتذييل موضوع "لتضمن معنى الجملة الأصلية بوجه من الوجوه، على نحو يبدو معه مضمون الجملة الأولى قد تكرر مرتين، مرة بالمطابقة، ومرة بالتضمّن"(٣)،وهو ما يلاحظ في هذا التذييل الذي جاء مدللًا على كون القرآن الكريم منزّلًا من عند الله، وذلك ببيان مكانته في الملأ الأعلى، وعظيم الصيانة التي أحاطه الله بها. فكان ذلك بمنزلة

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، ٧/٢٠٤-٢٠٦، والتفسير الموضوعي ٧/١١٠-١١٤.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود، أبو السعود العمادي، بيروت، دار إحياء التراث، ٨/٣٩.

(٣) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، لبنان، دار الفارابي، ط الثانية، ٢٠٠٧م، ص ٣٧٦.

الاستشهاد على المعنى الأول وإقامة الحجة على صحته،[١] مع إفادة معنى جديد هو التأكيد على أن القرآن لا يضيره تكذيب الكاذبين، ولا طعن الطاعنين، لأنه محفوظ ومصان في اللوح المحفوظ ومكرّم في الملأ الأعلى،[٢] وفي ذلك تعريض – والله أعلم- بأهل الأرض الذين أُنزل إليهم القرآن لإصلاح شأنهم، وإقامة أمرهم، فأعرضوا عنه، وقابلوه بالتكذيب والانتقاص.

وورد التذييل في الآية الكريمة بأسلوب خبري مؤكّد، قرر علوّ شأن القرآن الكريم، وأكّد سموّ مكانته، لأن المقام مقام تكذيب وجحد يستلزم إقناعًا يدفع الشك، ويؤكّد نسبة العلوّ والرفعة وإلهية المصدر للقرآن الكريم، ويدحض الإنكار، ويبيّن الحقائق ويقررها.

والأسلوب الخبري بما فيه عرض للقضايا والأحداث وتقريرها كان الأنسب في هذا المقام، إذ هو مقام إنكار– -كما أشار الإمام البقاعي-[٣] ينكر فيه المشركون منزلة القرآن الكريم، عنادًا وتعنتًا واستكبارًا ،وينسبون إليه وإلى من أوحي إليه به – صلى الله عليه وسلم- الكذب والسحر والكهانة وغيرها من النقائص؛ ولذا قُدّم الخبر لهؤلاء المخاطَبين المنكرين مؤكدًا بعدد من المؤكدات، فأكّد بـ (إنّ)، وبلام الابتداء، وباسمية الجملة المفيدة لثبوت وصف الحفظ والصون والعلو للقرآن الكريم ودوام ذلك، فبعد أن أكّد الله تعالى في الآية السابقة أنه أنزل القرآن بلسان عربي مبين رجاء أن يعقله

---

(١) ينظر: كتاب الصناعتين، ص ٤١٦.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير، ٢٠٠/٧.

(٣) ينظر: نظم الدرر، ٣٨١/١٧.

ويتدبره من نزل بلسانهم ويعُون معانيه وأحكامه، تصاعد التأكيد في آية التذييل، من خلال المؤكدات المشار إليها آنفًا، متضافرًا مع التأكيد المكتسب من التذييل الذي اشتمل على معنى الآية السابقة، فتكاثرت بذلك عناصر التدليل المؤكدة للقيمة العظيمة، والمنزلة الشريفة التي جعلها الله لكتابه، والمبينة لمقامه في الملأ الأعلى.

وهو ما يعني أن الخبر لم يُسق لإفادة المخاطَب خبرًا يجهله، وإنما تضمّن غاية بلاغية هي التشريف والتعظيم المستفاد من إعلاء شأن القرآن، وبيان مكانته في الملأ الأعلى، واتصافه بكل معاني العلو.

وزيادة في التأكيد قُدّم الظرفان: (في أم الكتاب)، و(لدينا) على الخبر المقترن باللام اهتمامًا بهما، ليفيد أن علوّه وحكمته ثابتة في اللوح المحفوظ، وليثبت له لدنيّة الشرف والمكانة عند الله تعالى.(١)

وختمت آية التذييل بصفتين من صفات القرآن الكريم (عليّ حكيم)، وكل منهما صفة مشبهة على زنة (فعيل)، أفادتا ثبوت صفتي العلو والحكمة للقرآن ولزومهما له، واستمرار اتصافه بهما،(٢) فوصف أولًا بأنه عليّ، ولما

---

(١) ينظر: نظم الدرر، ٣٨١/١٧.

(٢) ينظر: في إفادة الصفة المشبهة في بعض أحوالها للثبوت واللزوم: العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية، عبد القاهر الجرجاني، شرح خالد الأزهري، تحقيق: البدراوي زهران، القاهرة: دار المعارف، ط٢، ص ٣٠٠، وحاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، أبو العرفان محمد بن علي الصبان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤١٧ هـ -١٩٩٧م، ٣/ ٤.

كان العليّ قد لا تصحبه في علوّه حكمة، فلا يثبت علوّه – كما أشار الإمام البقاعي– قال: (حكيم) أي: بليغ في كل من هاتين الصفتين راسخ فيهما.[1]

وفي لفتة بديعة تؤكّد تناسب آيات القرآن الكريم وسوره مع بعضها بعضًا ربط الإمام البقاعي بين جملة التذييل هذه وآيات سورة الشورى الواردة قبل الزخرف في ترتيب المصحف الشريف، مشيرًا إلى تكرر الثناء على القرآن العظيم في آيات متفرقات من سورة الشورى، ومن ثم جاء القسم به والثناء عليه في مطلع الزخرف؛ ليؤكّد القسم والتذييل ما تفرق من تنويه بشأن القرآن في الشورى[2]، وهو ما يدل على تماسك القرآن الكريم وانسجامه، وكون معاني آياته وسوره متناسبة مترابطة آخذ بعضها برقاب بعض.

•التذييل الثاني:

التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]، تذييل لقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾ في الآية نفسها، هذه الجملة التي تحمل خبرًا عجيبًا منكرًا، يجعل المتلقي يتطلع إلى معرفة علته وسببه، فبعد اعتراف المشركين بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، نسبوا إليه الولد! ووصفوه بصفات المخلوقين! فزعموا أن الملائكة بنات الله– تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا–فأي خبر أشنع وأعجب

(١) ينظر: نظم الدرر، ٣٨١/١٧.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٣٨٢/١٧.

وأشد تناقضًا واضطرابًا وتهافتًا من ذلك؟! ومن هنا تطلع المتلقي إلى معرفة علة هذا الكفر والجحود الذي تأباه الفطرة السليمة، وتنفر منه النفس السويّة، فذُكرت العلة في جملة التذييل:(إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ) أي الزاعم هذا الزعم، والكافر والفاسق من بني آدم[1](لَكَفُورٌ مُّبِينٌ)، فعلة نسبة الولد والنقص لله تعالى هي الكفر والجحود، ومن وجه آخر: نعتهم بالكفر والجحود البيّن تأكيد على شناعة دعواهم.

ويلاحظ تكرار لفظ (مبين) نعتًا في موضعين متقاربين، فنُعت كفور هنا بـــ(مبِين)، ونعت الكتاب في الآية الثانية بأنه مبين ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزُّخْرُف : ٢] ، ليربط المتلقي بين إبانة القرآن الواضحة في لغته ومنهجه وأحكامه، وما قوبل به من كفر بيّن واضح ظاهر –والله أعلم–

ومن بلاغة التذييل في هذا الموضع وروده بالأسلوب الخبري المؤكد بـــ(إنّ)، وبلام الابتداء، واسمية الجملة، وجملة المؤكدات هذه تفيد التصاق صفة الكفر والجحود بهم، بينما نجد أن الجملة المذيّلة ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزُّخْرُف : ١٥]جاءت خبرية ابتدائية خالية من التوكيد، وربما كان السبب في ذلك – والله أعلم– أن جملة (وجعلوا..) كانت في مقام عرض الدعوى والقضية دون الحكم عليها، ثم جاء الحكم والرد في جملة التذييل المؤكدة بعدة مؤكدات، أو لأن الجملة الأولى تعبر عن حال المعنيين في ادعائهم الولد لله في صورة الأمر المسلم به، الذي لا يتطلب برأيهم

(١) ينظر: تفسير ابن عطية، بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤٢٢ هـ ، ٤٩/٥، والتفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، الفجالة– القاهرة، دار نهضة مصر، ط الأولى، ١٩٩٨م، ٦٨/١٣.

تأكيدًا ولا استدلالًا، لسفه عقولهم وشدة جهالتهم، فكانت جملة التذييل بما تحمله من الخبر المؤكد المفيد لمعنى الاستنكار والتجهيل والتعجب ردًّا متناسبًا من حالهم، وحال الدعوى المنكرة التي جاءوا بها، وحكمًا عليهم بالكفر المبين.

•التذييل الثالث:

التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، تذييل لقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ في الآية نفسها، والمراد بذلك ما ادعاه المشركون من أن عبادتهم للأصنام على قول، أو للملائكة على قول آخر، أو للأصنام التي جعلت صورًا للملائكة[(١)] هو بمشيئة الله ورضاه، ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡۗ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وما لهم بالقول من رضا الله بعبادتهم إياهم من علم، فما هم إلا كاذبون، وقولهم مبني على الخرص والظنّ والتوهم والمحاجة بالباطل[(٢)].

وقد أكدت جملة التذييل مفهوم الجملة السابقة الذي هو نفي العلم عنهم، بإثبات نقيضه لهم وهو الخرص والتوهم، فبناء الحكم على الظن والتوهم دليل جازم على أن صاحب الحكم ليس له من العلم بما يزعم شيئًا.

---

(١) ينظر: نظم الدرر،١٧/٤٠٤، والتحرير والتنوير، ٢٥/١٨٥.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي، ناصر الدين البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى، ١٤١٨ هـ، ٥/٨٨-٩٨، وتفسير ابن عثيمين لسورة الزخرف، محمد بن صالح العثيمين، القصيم، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ط الأولى، ١٤٣٦هـ، ص ٩٥.

ومما ضاعف من قوة التأكيد المكتسب من جملة التذييل مجيئها بالأسلوب الخبري المؤكد بالقصر بالنفي والاستثناء، بقصرهم على صفة الخرص والادعاء بالباطل. ويلاحظ مجيء النفي في أسلوب القصر بـ(إنْ) النافية دون (ما) النافية، ففي حين نفي العلم عنهم ب(ما) في قوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٢٠] ، جاء النفي في جملة التذييل ب(إنْ) لترقية النفي إلى مستوى أقوى وأعلى من المستوى السابق، إذ النفي ب(إنْ) -كما أشار د. السامرائي- آكد من (ما)، والدليل على ذلك اقتران (إنْ) في كثير من المواضع في القرآن الكريم بـــ(إلا)، وهو ما يكسبها القوة والتأكيد.(١)

وعليه يتبيّن أن الردّ على دعوى المشركين الباطلة بأن عبادتهم للأوثان، أو الملائكة، أو الأوثان التي على صورة الملائكة كان بتقدير الله ورضاه جاء بنفي متصاعد تصاعدًا تتابعيًا، فجاء النفي في المرة الأولى ب(ما) ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، بنفي كل علم عنهم، ثم تصاعدت وتيرة النفي والتأكيد في جملة التذييل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، باستعمال (ما) النافية الأقوى في الدلالة على النفي، والدالة باقترانها مع (إلا) على القصر، لتثبت الظن والتوهم والجهالة لهم، وتنفي العلم واليقين عنهم.

ولم يكن الغرض من سوق الخبر مجرد الفائدة، بل عنى شيئًا آخر، وهو ذم المشركين والتشنيع عليهم، بإظهار جهلهم وبعدهم عن الحق والعدل، وعن انتهاج سبيل العقل والحكمة في تقدير الأمور والحكم عليها.

(١) ينظر: معاني النحو، فاضـــل الســـامرائي، الأردن، دار الفكر، ط الأولى، ١٤٢٠-٢٠٠٠م، ١/٥٧-٥٨.

المطلب الثاني: التذييل بالخبر في المقطع الثاني (من الآية ٢٦-٥٦)

المعنى الإجمالي: يبيّن الله تعالى في هذه المقطع حقيقة ملّة إبراهيم عليه السلام التي زعم مشركو العرب أنهم عليها، وأنهم أهدى بهذا الاتباع من أهل الكتاب وأفضل عقيدة، فكذبهم الله في تلك الدعوى، وبيّن أن إبراهيم الخليل عليه السلام أول من تبرأ من عبادة الأوثان، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاءهم بعقيدة التوحيد الخالصة التي كان عليها نبي الله إبراهيم، فكابروا، وعاندوا، كفرًا وحسدًا وبغيًا وتشبثًا بقيم دنيوية أرضية زائفة، مستعظمين أن يُنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم الذي ليس له من متاع الدنيا شيء، حتى قالوا استخفافًا به: هلّا نُزّل القرآن على رجل عظيم من مكة أو الطائف؟! فاستنكر عليهم القرآن الكريم هذا الاعتراض، مبيّنًا أن الأمر ليس مردودًا إليهم، ومذكرًا بحقارة الدنيا، ودناءة قدرها عند الله تعالى، وأنه لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق، ويصير الناس أمة واحدة في الكفر، لجعل لهم من زخرف الدنيا الشيء الكثير(١).

ثم بيّن تعالى حال المعرِض عن ذكر الله، وأن الله يسبب له شيطانًا يصاحبه، ويزيّن له طريق الغواية، حتى يكون مصيره ومصير شيطانه العذاب الأليم يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى طرفًا من قصة موسى عليه السلام مع فرعون، أشار فيها إلى تشابه اعتراضات فرعون وقيمه مع اعتراضات مشركي العرب

(١) ينظر: تفسير ابن كثير،٢٠٦/٧-٢٠٨، والتفسير الموضوعي، ١١٤/٧-١١٩.

وقيمهم، وبيّن كيف كان ذلك سببًا في هلاك فرعون وآله، وتصييرهم عبرة لمن بعدهم من الأمم(١).

•التذييل الأول:

التذييل بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، تذييل لقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ في الآية نفسها.

أبرز التذييل هاهنا معنى الجمل السابقة، وزاد به المعنى انشراحًا، والمقصد اتضاحًا، وظهر لمن لم يفهمه، وتوكّد عند من فهمه – على حدّ تعبير الإمام العسكري المشار إليه آنفًا– فبعد أن أخبر الله تعالى عن طعن المشركين فيمن نزل عليه القرآن – صلى الله عليه وسلم– وكيف أنهم نصبوا أنفسهم منصب من يتخير أصناف الناس للرسالة عن الله، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف: ٣١]، وكأن الاصطفاء للرسالة معقود برأيهم وإرادتهم،(٢) أنكر عليهم ذلك، فقال سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزُّخْرُف:٣٢] باستعمال الأسلوب الإنشائي الذي أفاد فيه الاستفهام معاني الإنكار والتوبيخ والتعجب من حالهم. وسُلط الاستفهام الإنكاري على الضمير (هم) للإنكار عليهم، وبيان

(١) ينظر: تفسير ابن كثير،٧/ ٢٠٩–٢١٣، والتفسير الموضوعي، ٧/١٢٠–١٢٧.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي، ٥/٩٠، والتحرير والتنوير، ٢٥/١٩٩–٢٠٠.

عدم أحقيتهم في قسمة النبوة، وأن غيرهم هو القاسم، ثم أتبعت هذه الجملة بجملة خبرية: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ [الزُّخْرُف : ٣٢]، للإخبار بسبب الإنكار المتقدم وعلته، وهو أن الله تعالى هو القاسم والمقدر لأرزاقهم، على تفاوت ما بينهم في الرزق وفق حكمته سبحانه، وأنهم عاجزون عن قسمة معيشتهم وأرزاقهم وأقوات دنياهم بينهم- وهي دون النبوة منزلة[١]- فكيف تسول لهم أنفسهم قسمة النبوة بين الناس، وتخير هذا أو ذاك لها؟!!

وجاءت جملة التذييل ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزُّخْرُف : ٣٢] للردّ عليهم ردًّا ثانيا يؤكّد الردّ الأول ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ويقرر معناه، إذ كيف يجعل الله أمر رحمته التي هي الجنة أو النبوة بين أيديهم يقسمونها كيفما شاءوا؟![٢]

وسيق التذييل بأسلوب خبري ابتدائي، أفاد التقرير؛ ليتأمله العاقل المنصِف، ويتعجب كما تعجب القرآن من حال هؤلاء الذين يريدون أن يحكموا فيما هو من اختصاص الله تعالى وحده.

وتخلل جملة التذييل المقارنة التفضيلية المفادة من اسم التفضيل (خير) التي أصلها (أخير) بوزن (أفعل)؛ للتدليل على أن هذه الرحمة أفضل وأعظم

(١) ينظر: تفسير البيضاوي، ٩٠/٥، والتحرير والتنوير، ٢٠٠/٢٥.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤-١٩٦٤م، ٨٤/١٦.

وأثمن مما يجمعون، مهما بلغ شأن هذا المجموع من متاع الدنيا ومهما كانت قيمته المظنونة.

ومن اللطائف البلاغية أيضا في جملة التذييل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ إيماء إلى تأييد الله لنبيه عليه السلام، وتأنيسًا له بالإقبال بالخطاب عليه بعد أن استخف قومه به بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾،(١) ومنها التعبير بالاسم الموصول (ما) في قوله: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ لإفادة العموم والشمول، ومجيء صلة الموصول فعلًا مضارعًا (يجمعون)، للدلالة على شمول الحكم لما جُمع سلفًا، وما سيتجدد جمعه من متاع الدنيا.

•**التذييل الثاني**:

التذييل بقوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، تذييل لقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في الآية نفسها.

فبعد أن ذكر الله عز وجل ما يدل على هوان الدنيا عليه، وبعد أن أخبر أنه لولا لطفه ورحمته بعباده سبحانه وكراهة أن يكون الناس أمة واحدة مجتمعة على الكفر، لوسّع الدنيا على الذين كفروا توسيعًا عظيمًا(٢)، ولجعل لبيوتهم من صفات الرفاهية والبذخ، من سقف الفضة، وسلالم

---

(١) ينظر: تفسير البيضاوي، ٩١/٥، والتحرير والتنوير، ٢٠١/٢٥.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية، ٥٣/٥، وتفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ، ص ٧٦٥.

الذهب، والقصور التي فيها ما فيها من زخارف الدنيا وبهارجها، من الأبواب الكثيرة، والسرر الفارهة، ومظاهر النعيم والترف، ما لا حصر له؛ ليتمتعوا بهذا النعيم الزائل في الحياة الدنيا[1] لا حبًّا في الكافرين، ولا تقديرًا لهم، وإنما استهانة بالدنيا وتحقيرًا لها، ذيّل ذلك بخبر خالٍ من التوكيد مفيد للتبشير، متناسب مع حال الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لا ينكر ولا يشك ولا يتردد في تصديق موعود ربه، للإعلان عن حقيقة أن العاقبة للمتقين، ولتأكيد مضمون الجمل السابقة : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاس...﴾، فإن من أشدّ الدلائل على هوان متاع الدنيا على الله تعالى أنه لم يجعلها جزاءً للمحسنين والمتقين من عباده، بل اختار لهم الآخرة بما فيها من نعيم خالد لا يماثله شيء من نعيم الدنيا ولا يدانيه.

وقُدّم الظرف(عند) في قوله: (عند ربك) على الجار والمجرور (للمتقين) لإرادة إبراز معنى مهم وتأكيده وتقريره في الأذهان، وهو أن ميزان التفاضل الإلهي بين البشر قائم على الإيمان والتقوى، لا على ميزان المال والجاه والسلطان الذي أراد المشركون إخضاع اصطفاء الأنبياء له بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

•التذييل الثالث:

التذييل بقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٠]، على المقطع السابق الذي كشف القرآن فيه عن سنن الله في توزيع الأرزاق الدنيوية والأخروية بين الناس، ثم شبه سبحانه من نال شيئًا من متاع

(١) ينظر: تفسير ابن عطية، ٥٣/٥، والتفسير الوسيط ٧٨/١٢-٨٨.

الدنيا، وانشغل بالشهوات والمحسوسات، وصدّ عن ذكر الله بالأعشى في غفلة قلبه عن ذكر الله، وعمى بصيرته عن رؤية الحق، ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين(١)، وصار الشيطان قرينه يوسوس له ويغويه ويصده عن سبيل الحق(٢) حتى إذا كان يوم القيامة وجاء كل قرين مع قرينه صيّرهما الله إلى النار.

ولما كانت قريش تسمع هذا فلا تزداد إلا اعتراضًا وتكذيبًا خاطب الله نبيه عليه الصلاة والسلام تسلية له: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٠]، مبتدئًا الخطاب باستفهام تعجبي(٣) فيه تعجب من أن يكون قادرًا عليه الصلاة والسلام على هدايتهم وهم الذين إذا أسمعهم القرآن كانوا كالصمّ، وإذا أراهم المعجزات ودعاهم للنظر في القرآن وتدبره كانوا كالعمي(٤)، فتجاوزوا بإصرارهم على الكفر والإعراض طور وصفهم بالعشا –السابق ذكره في قوله سبحانه: ﴿ومَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزُّخْرُف: ٣٦] – الذي لم يكونوا قادرين فيه على تمييز الحق، حتى وصلوا إلى طور أشد خطرًا وأفدح وهو العمى التام عن رؤية الحق.

ولما كان حال النبي صلى الله عليه وسلم في شدة إرادته لإقبالهم، ومعاودة دعوتهم كحال من يظن أنه قادر على خلق الهداية في قلوبهم نُزّل منزلة من ينكر أن الهداية بيد الله وحده، فخوطب باستفهام أفاد إنكار

(١) ينظر: تفسير الرازي، ٦٣٤/٢٧.
(٢) ينظر: تفسير البيضاوي، ٩١/٥.
(٣) ينظر: تفسير ابن عطية، ٥٦/٥.
(٤) ينظر: تفسير الرازي، ٦٤٣/٢٧.

التعجيب[١]، سُلّط على ضمير المخاطب(أنت)، كما قُصر نفي الإسماع ونفي الهداية على الضمير (أنت) عن طريق تقديم المسند إليه على خبره الفعليّ، قصر قلب، تأكيدًا لحدود وظيفة الرسل عليهم السلام التي هي الإبلاغ والإنذار[٢].

ثم جاء التذييل ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ موصولًا بالجملة السابقة بالعطف بالواو "يريد بذلك قريشًا بأنفسهم، ولذلك لم يقل: "أو من كان"، بل جاء بالواو العاطفة، كأنه تعالى يقول: (وهؤلاء)"،[٣] والمعنى وهؤلاء في ضلال مبين، فما بهم أعمّ من الصمم والعمى[٤]، وهو التمكن والاستقرار في الضلال البّين الواضح، فهؤلاء قد أحاط بهم الضلال من كل جانب وانغمسوا فيه انغماسًا، وهو ما أفاده التخييل المتولد من دخول حرف الجر (في) المفيد للظرفية[٥]على (الضلال)، فكأن الضلال جُعل أصلًا ومحلًا لهم، مبالغة في بيان تمكنه منهم، وفي الوقت نفسه تعليلًا لوصفهم السابق بالصمم والعمى.

ويشير أبو السعود إلى لطيفة في هذا التذييل هي رفع توهم أن يكون ما عليه هؤلاء من الضلال مرده إلى قصور من قبل الهادي، يقول: " ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار في الضلال المفرط بحيث لا ارعواء

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري=الكشاف، جارالله الزمخشري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٤٠٧هـ، ٢٥٣/٤.

(٢) ينظر: تفسير الرازي، ٦٣٤/٢٧، والتحرير والتنوير، ٢١٦/٢٥.

(٣) تفسير ابن عطية، ٥٦/٥.

(٤) ينظر: سور الحواميم دراسة بلاغية، ص ٢٥٦.

(٥) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مصر، المكتبة التوفيقية، ٤٤٥/٢.

له منه، لا توهم القصور من قبل الهادي، ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحده بالقسر والإلجاء."[1]

•التذييل الرابع:

التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٣]، تذييل للمقطع السابق الذي وصف الله فيه المشركين بالصمّ والعمي، ثم قال سبحانه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزُّخْرُف : ٤١ - ٤٣]، أي إن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم فإنّا منتقمون منهم في الآخرة أشدّ الانتقام، وإن عجّلنا لهم العقوبة في حياتك وشفينا صدور قوم مؤمنين فإنا قادرون عليهم ولا يعجزوننا،[2] فاستمسك في كلا الحالين بالقرآن الذي أوحينا به إليك، وإن كذّب به من كذّب، ثم جاء التذييل معللًا الأمر بالاستمساك ومؤكدًا له ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخْرف : ٤٣] بأسلوب خبريّ مؤكّد، وجاء التذييل الخبري متناسبًا مع الانشاء السابق الذي طُلب به دوام التمسك بالوحي، إذ الأمر (استمسك) موجّه للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو متلبس به قبل الأمر، والأمر إذا كان بما هو حاصل أفاد ذلك دوام ما حصل[3]، فدلّ ذلك على أن المقصود طلب دوام التمسك بالقرآن، وهذا الطلب لا يكون إلا إذا كان المنهج والطريق بيّن

(١) تفسير أبي السعود، ٤٨/٨.

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري، ٢٥٤/٤.

(٣) ينظر: همع الهوامع، ٣٥/١.

مستقيم.

ومن اللطائف البلاغية في التذييل اشتماله على الاستعارة المصرحة في (الصراط المستقيم) حيث استعير الطريق المستقيم للدين الحق، واستعمال حرف الاستعلاء (على) للدلالة على تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم ورسوخه في الاهتداء إلى مراد الله، كتمكن السائر في طريق مستقيم في الاهتداء إلى غايته.[1] وهذا المعنى فيه تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه قد أدَى الأمانة، وبلّغ الرسالة وفق ما كلفه الله به، وأُوحي به إليه، يقول صاحب التحرير والتنوير: "وهذا تثبيت للرسول ﷺ وثناء عليه بأنه ما زاغ قيد أنملة عما بعثه الله به"[2].

- **التذييل الخامس**:

التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزُّخْرُف : ٥٤] ، ويأتي هذا التذييل معقبًا على استخفاف فرعون قومه، على سبيل تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يعترض به قومه على اختيار الله له للرسالة بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٣١]، وهي ذات الشبهة التي أوردها فرعون على موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٢٠/٢٥.

(٢) السابق، ٢٢٠/٢٥.

أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴾ [الزُّخۡرُف : ٥١ - ٥٣] ، فاستخف عقولهم الضعيفة، فأطاعوه وكذبوا موسى[١] والسبب: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٤]، وجاء التذييل الخبريّ مؤكَّدًا لتأكيد عراقتهم في النفاق والشرّ والخروج عن طاعة الله إلى معصيته،[٢]وأفاد التشنيع عليهم، والتأكيد على أن فرعون لم يكن له سلطان على قلوبهم، وإنما هي الغفلة والذلة والضلال الذي أعمى بصائرهم، وجعلهم ينقادون لفرعون، ويجيبونه إلى ما أراد، ويعرضون عن سبيل الهدى، ويتمسكون بعرض من الدنيا.

كما أشار التذييل إلى أن إعراض قوم فرعون عن دعوة موسى عليه السلام لم يكن لتفريط موسى عليه السلام في التبليغ- حاشاه عن ذلك – ولا لفتور عزيمته، ولا لتوانيه عن الأخذ بكل الوسائل والأسباب المعينة على إيصال الرسالة، وإنما هو لسبب يتعلق بهؤلاء القوم أولًا وآخرًا، ويؤكد ذلك ورود التذييل بجملة اسمية أفادت ثبوت الوصف واستمراره.

وفي التذييل إشعار بأن السبب في إعراض مشركي العرب عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم هو الفسق وانحراف العقيدة والتصور- والله أعلم- إذ هم المعنيون بذكر ما كان من شأن المعرضين عن دعوة الرسل عليهم السلام.

•التذييل السادس:

ثم جاء التذييل الخبريّ الثاني في القصة: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الزُّخۡرُف : ٥٦]بعد ذِكْر عاقبة هؤلاء الفاسقين في قوله تعالى:

(١) ينظر: تفسير الرازي، ٦٣٨/٢٧.

(٢) ينظر: نظم الدرر،٤٥١/١٧.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزُّخْرُف : ٥٥]، ليختم هذه الحلقة المذكورة منها في السورة.

والسلف والسليف والسلفة: الجماعة المتقدمون(١). والمراد "جعلناهم سلفًا لكفار هذه الأمة على النار، ومثلًا لمن يجيء بعدهم"،(٢) وعبرة وعظة ومثلًا سائرًا عجيب الشأن(٣) للآخرين المشابهين لهم في تكذيب الرسول،(٤) وبذلك يتبيّن أن المراد من سوق القصة ليس عين القصة، بل المقصود الردّ على الشبهة التي جاء بها مشركو العرب باعتراضهم على من اختاره الله لحمل الرسالة(٥)، وهو ما أكدّه التذييل الذي حمل الخبر فيه معنى التهديد والوعيد والتخويف من سوء العاقبة والمصير، وفيه الدلالة على قدرة الله العظيمة وقوة انتقامه ممن هم أشد من قريش جبروتًا وبأسًا وبطشًا.

ومجيء جملة التذييل معطوفة على الجمل التي قبلها بالفاء (انتقمنا، فأغرقناهم، فجعلناهم) دلّ على سرعة تعاقب الأحداث، ونزول العذاب بفرعون وقومه من حيث لم يحتسبوا.

وعُرضت هذه العاقبة مجملة من غير تفصيل، "وذلك لأن المقام هنا هو مقام الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل".(٦)

---

(١) لسان العرب، مادة (سلف).

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ٢٨١/١٧.

(٣) ينظر: تفسير الزمخشري، ٢٥٩/٤.

(٤) ينظر: نظم الدرر، ٤٥٢/١٧.

(٥) ينظر: تفسير الرازي، ٦٣٨/٢٧.

(٦) التفسير الوسيط، ٣٦٢/٥.

المطلب الثالث: التذييل بالخبر في المقطع الثالث (من آية ٥٧-٨٩)

المعنى الإجمالي: تقرر السورة الكريمة في هذا المقطع عبودية عيسى -عليه السلام- لله عزّ وجلّ- بعد أن ضرب القرآن المثل بالآلهة التي عبدت من دون الله، فاستخف ابن الزبعرى قريشًا بضربه مثلًا بعيسى عليه السلام بعبادة النصارى إياه كما عُبدت الأصنام من دون الله، وأنه عليه السلام - كما تذكر الآية- من (حصب جهنم) مثله مثل الأصنام، ومثل كل ما عُبد من دون الله، في جدل ملتوٍ، وجلبة وضجيج، حتى ظن المشركون أن ابن الزبعرى قد غلب الرسول صلى الله عليه وسلم بحجته[١].

وما ضربوا هذا المثل إلا على وجه الجدل، والخوض في الباطل؛ ولذا ذكرّهم عزّ وجلّ بأمر الساعة التي يكذبون بها، وعرض شيئًا من أحوال يوم القيامة، وبشر المتقين السعداء بألوان النعيم، وأوعد الفجّار الأشقياء بألوان من العذاب الأليم، لتعود الآيات في ختام السورة إلى تنزيهه - سبحانه وتعالى- عن الولد والشريك[٢].

•:التذييل الأول

التذييل بقوله تعالى:﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨]، تذييل لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٥٨].

(١) ينظر: تفسير البيضاوي، ٢٠٥/٤.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير،٢١٤/٧-٢٢٤، والتفسير الموضوعي، ١٢٨/٧-٢٤١.

سبب نزول هذه الآية كما جاء عند الواحدي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأَنبِيَاء : ٩٨]، قالوا: يزعم محمد أن كل ما عُبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة في النار، وقد علموا أن عيسى عليه السلام غير مراد في الآية، وأن المراد هؤلاء الأصنام، وما ضربوا هذا المثل لك يا محمد (إلا جدلًا) طلبًا للجدال، والتماسًا للخصومة بالباطل.(١)

فبعد أن أكّد تعالى أن المشركين ما مثّلوا المثل بعيسى عليه السلام إلا جدلًا وخصومة بواسطة القصر بالنفي والاستثناء، انتقل بـ(بل) التي أفادت الإضراب الانتقالي إلى وصفهم بحبّ الخصام، وإظهار ما لا يعتقدون من الحجج تضليلًا لعوامهم(٢)، فكانت جملة التذييل ذات الخبر الابتدائيّ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ مؤكدة بمفهومها معنى الجملة السابقة، فحبهم للخصام تأكيد على أنهم لم يضربوا المثل بحثًا عن الحق، وتطلعًا للصواب، بل مراء وطعنًا في الدين، وصرفًا للناس عن الحقّ، وفيها التأكيد على تهافت حججهم، وضعف أدلتهم، وسقوط دعواهم.

وفي التذييل تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، ودعوة له للإعراض عن مجاراتهم في جدالهم، فهم قوم أهل جدل وخصومة، ولذا عبّرت الآية

---

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤١١ هـ، ص ٣١٤-٣١٥، وتفسير البغوي، أبو محمد الحسين بن الفراء البغوي، تحقيق: عبد الرازق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث، ط الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٦٥/٤.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ٦٢٧/٢٠، والتحرير والتنوير، ٢٤٠/٢٥.

الكريمة عن حبّهم للخصام بالباطل بصيغة المبالغة من اختصم (خَصِمون) على زنة فَعِل، للتدليل على كثرة صدور ذلك منهم باندفاع وخفة، من غير تبصر ولا تفكير، وتكرره، حتى صار لهم كالعادة[1]، فأفاد ذلك الانتقال من ذمّ إلى ذمّ أشدّ وآكد.

ويلاحظ تعاقب الأخبار المفيدة للذمّ والتحقير في سياق السورة الكريمة، إذ أخبر تعالى عنهم بـ ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، ثم أخبر عنهم بخبر آخر في المسألة ذاتها: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾، ثم خبر ثالث: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، وكلها أخبار تفيد الذم والتحقير، وتؤدي بتراكمها إلى كشف خبايا نفوسهم، وحقيقة مرادهم.

•التذييل الثاني:

التذييل بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٦٥]، تذييل لقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ في الآية نفسها، أي اختلف أهل الكتاب وتحزّبوا على الباطل لمّا جاءهم موسى عليه السلام بالدعوة إلى عبادة الله وحده، وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الزُّخْرُف : ٦٤]، فمنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة – تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- [2]،

(١) ينظر: همع الهوامع، ٧٥/٣، ومعاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي، الأردن، دار عمار، ط٢، ١٤٢٨/٢٠٠٧م، ص ١٠٢.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي،٩٥/٥، وتفسير السعدي، ص ٧٦٨.

فجاء التذييل ليؤكّد مفهوم الجملة السابقة، فتوعُدهم بالعذاب الأليم فيه تأكيد على أنهم نسبوا لعيسى عليه السلام ما هو بريء منه، وما هو خلاف ما وصف به نفسه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [الزُّخۡرُف: ٦٤]، كما أفاد التذييل بيان العقاب الشديد الذي أعدّه الله لمن أشرك به غيره، وأفاد التعميم كذلك، أي أن هذا الوعيد يشمل عموم المشركين من النصارى، ومن مشركي العرب المقصودين من هذه الأمثال والعبر.(١)

وعُبّر عن هذا الوعيد بالخبر الابتدائيّ الخالي من التوكيد، لإفادة الزجر والتهديد والوعيد، فبعد أن أكّد الخبر على لسان عيسى عليه السلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ [الزُّخۡرُف : ٦٤] بعدد من المؤكدات: (إنّ، والقصر بضمير الفصل، والتأكيد باسمية الجملة لإفادة الثبوت والدوام) لتقرير الخبر، تفرع عنه خبر ابتدائي ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ [الزُّخۡرُف : ٦٥] ، وترتب على ذلك خبر ابتدائي آخر بواسطة الفاء العاطفة ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الزُّخۡرُف : ٦٥]؛ ليخبر عن عاقبة أفعالهم وضلالهم، ولعل هذا هو سرّ التعبير بالاسم الموصول (الذين ظلموا) بدلًا من (الظالمين)، فالاسم الموصول أومأ إلى وجه بناء الخبر الملائم لحالهم وهو (العذاب الأليم)، وأفاد التعبير بالفعل الماضي في صلته الدلالة على حصول الظلم منه وهو الكفر، وأنه كفر متأصّل في نفوسهم وليس عارضًا متجددًا، وأفاد كذلك بيان علّة الويل الذي توعّدهم الله به.

(١) ينظر: تفسير الطبري،٦٣٧/٢١، والتحرير والتنوير، ٢٥٠/٢٥.

وورد التهديد بوصف يوم القيامة بأنه (أليم) على طريقة المجاز الإسنادي تنزيلًا للزمن الذي وقع فيه الفعل منزلة الفاعل؛ لأن الزمن لا يؤلم، والمؤلم هو الله، حيث "نُزّل الظرف منزلة الفاعل نفسه لكثرة وقوع الفعل فيه، فجُعل كأنه وقع الفعل منه"[(١)] على سبيل المبالغة في كثرة وقوع الألم ذلك اليوم، وهو ما أكّده ابن عاشور بقوله: "وصف اليوم بالأليم مجاز عقليّ، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم؛ لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية جعل زمانه أليمًا، أي مؤلمًا."[(٢)]

•التذييل الثالث :

التذييل بقوله تعالى:﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢]، تذييل لقوله:﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، هذه الآية التي لقّن الله تعالى فيها رسوله عليه السلام حجّة يردّ بها على المشركين الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله- تعالى الله عن ذلك- وعلى أهل الكتاب الذين يزعمون أن عيسى ابن الله، ويقول له: قل لهم لو كان لله ولد على سبيل الفرض والتقدير لكنت أول عابد له ولما أنكرت ذلك، ولكن ذلك مستحيل في حق الله، فعلم بذلك بطلان دعواكم،[(٣)] "فالمعنى إن كان للرحمن ولد، وصحّ ذلك وثبت ببرهان صحيح

---

(١) روح المعاني، شهاب الدين الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت، دار الكتب العلمية،١٤١٥هـ، ٥٣٦/٦.

(٢) التحرير والتنوير، ٤٤/١٢.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ٢٢٢/٧، وتفسير الآلوسي،١٠٣/١٣، وللمفسرين أقوال أخرى في الآية الكريمة. (يراجع المصدران المذكوران، ونظم الدرر، ٤٨٨/١٧، وتفسير

توردونه، وحجّة واضحة تدلون بها، فأنا أول من يعظمّ ذلك الولد، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له، كما يعظّم الرجل ولد الملك لعظم أبيه، وهذا نفي لكينونة ولد له سبحانه على أبلغ وجه وهو الطريق البرهانيّ والمذهب الكلاميّ"،[1] ثم أتى التذييل ليؤكّد هذا المعنى ويقرره، وليقدم دليلًا جليًّا يدحض ادعاءاتهم، وذلك بتنزيه الله تعالى ربّ السماوات وربّ الأرض عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وعن كل شائبة ونقص.

وجاء التنزيه والتقديس بلفظ (سبحان) لا بلفظ سبّح أو يسبّح، لمناسبة ذلك لشناعة النقص الذي أرادوا إلصاقه بالله عزّ وجلّ، وهو نسبة الولد له جلّ شأنه، فكان من المناسب أن يؤتى بأقوى لفظ في التنزيه والتقديس،[2]ثم بدأ بذكر ربوبية الله للسماوات التي هي أعظم الأجرام وأقواها وأعمّها، وثنّى بالأرض، فشمل بذلك كل الموجودات،[3]ثم أطنب بذكر العرش (العام) بعد السماوات والأرض (الخاص)، وأطنب بتكرار كلمة (ربّ) مع العرش تنويهًا بشأنه، ليدلّ على أن من هذا ملكه، ومن كل المخلوقات تحت ملكه وربوبيته فإنه لا حاجة له للولد، الذي إنما يُحتَاج إليه لسدّ عجز، أو ضعف، أو تحقيق معونة.

القرطبي، ١١٩/١٦، وغيرها).

(١) نظم الدرر، ٤٨٨/١٧.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ٦٥١/٢١-٦٥٢، والتفسير الوسيط، ١٠٥/١٣.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير،٢٢٣/٧.

وجاء التذييل بالأســـلوب الخبريّ المؤكد بالتكرار اللفظي لكلمة (ربّ)، وباســـميّة الجملة، لإفادة ثبوت التنزيه ودوامه، لغرض التنزيه والتقديس، تناسبًا مع شناعة الدعوى المردود عليها.

•التذييل الرابع:

التذييل بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزُّخۡرُف : ٨٤]، تذييل لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزُّخۡرُف : ٨٤]، حيث أكّد سبحانه أنه هو الإله الحق وأن كل ما عداه باطل، فهو المعبود بحقّ في السماوات، والمعبود بحقّ في الأرض، وهو الحكم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم، وفي ذلك تكذيب لهم فيما زعموه من نسبة الولد والشريك لله[(١)].

وقُصد بذكر السماء والأرض الإحاطة بعوالم الخلق والتدبير، فهو سبحانه إله السماء التي جعلوا له فيها شركاء، وهم الملائكة الذين زعموا أنهم بنات الله، وهو إله الأرض التي جعلوا له فيها شركاء كذلك من الأوثان وغيرها، فبطلت بذلك ألوهيّة كل من سوى الله عزّ وجلّ[(٢)].

وكُرر لفظ (إله) للتأكيد، وربما لبيان أن طريق عبادة أهل السماء له تعالى غير طريق عبادة أهل الأرض له – كما أشار الآلوسي–[(٣)]

وقُدمت السماء على الأرض لأن الأرض تبع لها في غالب الأمور[(٤)]، وذُيّل ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، للتدليل على اختصاصه تعالى

(١) ينظر: تفسير القرطبي، ١٢١/١٦، وتفسير ابن كثير، ٢٢٣/٧.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي، ١٢١/١٦، والتحرير والتنوير، ٢٦٧/٢٥.
(٣) ينظر: تفسير الآلوسي، ١٠٥/١٣.
(٤) ينظر: نظم الدرر، ٤٩١/١٧.

بالألوهية ونفيها عمن سواه، لأن من لا يتصف بكمال الحكمة والعلم لا يستحق الإلهيّة[1]، كأنه قيل: إنّ الدليل على كونه تعالى إله الأرض والسماء أنه عليم بكل ما خلق ومن خلق، وأنه حكيم في تدبير هذا الخلق وتقديره.

وفي مجيء الوصفين:(حكيم، وعليم) على زنة فعيل صفة مشبهة، إفادة لبلوغ الكمال في الصفتين.

وقُدّمت الحكمة على العلم في هذا السياق لمناسبة ذلك لمقام الألوهيّة الذي تحدثت عنه الآية الكريمة، فمن صفات الإله أنه حكيم، كونه المشرع الحاكم المطلق، صاحب الحكمة في تصريف شؤون الخلق والمخلوقات وتشريع الأحكام والحكم بين العباد، فناسب هنا تقديم الحكمة، ثم ثنى بالعلم لأن من صفات الإله كذلك إحاطة علمه بكل ما في الوجود، وأنه لا يعزب عن علمه شيء[2].

(١) ينظر: تفسير الآلوسي، ١٠٦/١٣.

(٢) ينظر: نظم الدرر، ٤٩٢/١٧.

المبحث الثاني

من بلاغة الترابط والتناسق بين جمل التذييل في الزخرف، وبينها وبين جمل التذييل في أخواتها من سور (آل حم).

المطلب الأول: أثر التذييل في ترابط البناء الداخلي لسورة الزخرف

لما كان مطلع سورة الزخرف متضمنًا القسم بالكتاب على عظمة الكتاب، تنويهًا بشأنه، وتعريضًا بمن أعرضوا عنه، وأهملوا تدبره مع كونه نزل عربيا مبينًا،(١) كان من المناسب أن يُختم هذا المطلع بالتذييل بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزُّخْرُف : ٤]، مخبرًا عن حقيقة هذا القرآن وعظيم مكانته، مما يحمل المتلقي على التفكر والتأمل فيه، وإيقاظ العقل، والتخلص من الانحرافات العقدية، وموروثات الجاهلية، واستشعار نعمة الله على البشرية في إنزال القرآن هداية لها في أمر دينها ودنياها وآخرتها.

وانتقل الكلام بعد هذا المطلع إلى آية فيها غضب على من انصرفوا عن القرآن مع ما فيه من بيان وكمال(٢) ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزُّخْرُف : ٥] تمهيدًا لما سيأتي بعدها من آيات.

ولما كان الكفر مخالفًا للفطرة السليمة التي خلق الله الناس عليها ذكّرهم تعالى ببقايا الحنفية الأولى المغروسة في ضمائرهم(٣) بذلك السؤال التقريري في قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

(١) ينظر: نظم الدرر، ١٧/٣٧٧-٣٧٨.

(٢) ينظر: آل حم الشورى-الزخرف- الدخان دراسة في أسرار البيان، محمد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط الأولى، ٢٠١٠م ص ٢٥٧.

(٣) ينظر: السابق، ص ٢٦٥.

لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزُّخْرُف : ٩] ، موجهًا لهم إلى آياته في الكون، وداحضًا عقائدهم الباطلة، ليأتي التذييل المفيد لتعليل هذه العقيدة المنحرفة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزُّخْرُف : ١٥].

وبيْن التذييل الأول: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزُّخْرُف : ٤] ، والتذييل الثاني: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزُّخْرُف : ١٥] مسافة من الجهل والإعراض والتعنت تدعو للتفكر والاعتبار.

والكفر المبِين ليس إلا نتاج الإرث العقدي الفاسد، ومن هذا الفساد واختلاط القيم، واختلال الموازين، اعتراضهم على نزول الرسالة على محمد صلى الله عليه وسلم بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزُّخْرُف : ٣١] ، متأثرين بما غلب عليهم من مادية دنيوية تقيس العظمة بالمال والجاه والسلطان، متناسين الحقيقة الإيمانية التي قررها التذييل في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزُّخْرُف : ٣٢] ، وتلك الحقيقة الإيمانية الأخرى التي بشّر الله بها عباده المتقين بقوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزُّخْرُف : ٣٥].

ولما كانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم الإنذار والتبليغ، وليس خلق الهداية في قلوب البشر، توجه الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم على سبيل التعزية والتسلية بتشبيه المعرضين بالصم والعمي في عدم انتفاعهم بآيات الله في كونه وكتابه، والتأكيد على كونهم ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٠] ، ثم حثه على الاستمساك بالحق الذي أوحي به إليه، والصبر عليه،

وتعليل ذلك بالتذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣].

ولمزيد من التثبيت والتسلية له عليه الصلاة والسلام قصت السورة الكريمة حلقة من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، تحكي اغترار فرعون بالملك والسلطان والجاه، وإعراضه عن دعوة الحق، وطعنه في موسى عليه السلام لخلو يده من المال، بقوله – كما جاء على لسانه في السورة الكريمة– ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزُّخْرُف : ٥٣]، وتبيّن القصة كيف ظل فرعون يجادل بالباطل حتى استخف قومه وأتباعه وحملهم على طاعته، وما ذاك إلا لأنهم ﴿كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزُّخْرُف : ٥٤] –كما أكّد التذييل– والتذييل بـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزُّخْرُف : ٥٤]وثيق الصلة بالتذييل السابق ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٣] إذ يثْبِت أن زيع الأقوام الكافرة لم يكن لعلة في المنهج، ولا في الرسل الكرام عليهم صلوات الله وسلامه، ولكن بسبب ما استقر في قلوبهم من كفر وانحراف.

ولأنهم كانوا قوما فاسقين استحقوا أن يُصيّروا أمثولة لكل من سار على نهجهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزُّخْرُف : ٥٦].

وبذلك تقدّم القصة صورة تكاد تماثل حال مشركي العرب مع محمد صلى الله عليه وسلم في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٣١]، ليكون هذا المثل عظة للكافرين، وتطمينًا للنبي عليه السلام ومن معه من المؤمنين.

وفي عودة إلى دحض أساطير المشركين العقدية، وتفنيد حججهم الواهية التي ما أردوا منها إلا الجدال بالباطل، تعرض السورة الكريمة مجادلة المشركين في شأن عيسى عليه السلام، ويصفهم التذييل بأنهم ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ٥٨]، هذه طبيعتهم، وهذا مرادهم، فهم لا ينشدون من هذا المراء إصابة الحق، ولا معرفة الهدى من الضلال، ومن هنا جاء التذييل معقبًا على اختلاف قوم عيسى في شأنه، وتفرقهم إلى أحزاب بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٦٥] ، بتهديد عام يشمل أولئك الغابرين، ومشركي العرب المقصودين من هذه الأمثال والعبر، ومن يسلك مسلكهم في أي زمان أو مكان.

والتذييل بـ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ متصل بالتذييل السابق ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ٥٨] فالذين يجادلون بالباطل خليقون بالتهديد بالعذاب الأليم.

ثم تمضي السورة الكريمة في عرض مشاهد من تنعيم المتقين الذين انخلعوا عن الإشراك بالإيمان في جنات النعيم، ومشاهد من تعذيب الكافرين عذاباً أليمًا؛ لتبصير كل ذي لبّ منهم بما ينتظره من أهوال يوم القيامة.(١)

وخُتمت السورة بتقرير تفردّ الله تعالى بالألوهية، ونفي إلهية غيره في السماء والأرض بالتذييل بقوله عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ٨٢]، مع إثبات كمال العلم والحكمة

(١) ينظر: تفسير ابن عطية، ٦٢/٥-٦٤، والتحرير والتنوير، ٢٥١/٢٥-٢٥٤.

له سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزُّخۡرُف : ٨٤]، فرب السماوات والأرض لا ريب أنه حكيم عليم، بالغ الكمال في العلم والحكمة.

وكما اشتمل التذييل الأول على (الحكيم) وصفًا للقرآن الكريم، اشتمل التذييل الأخير على (الحكيم) وصفًا للذات الإلهية، فالحكيم - جلّ شأنه- هو من أوحى بهذا الكتاب المملوء حكمة، والمحكم في أحكامه وتشريعاته، والمحكم في لغته وبيانه، والمحكم من الباطل، والمحفوظ من كل تحريف أو تبديل - والله تعالى أجلّ وأعلم-.

المطلب الثاني: التذييل بالخبر بين الزخرف وأخواتها من سور (آل حم)

العلاقة بين سورة الزخرف موضوع الدراسة ومجموعة سور آل حم الأخرى مبنية على التشاكل والتعالق والانسجام في المقاصد والأهداف والموضوعات- كما ذُكر آنفًا- فبينما نجد القَسَم بالكتاب المنزل وبيان عظمته ومنزلته في الملأ الأعلى في مطلع سورة الزخرف مذيلًا بقوله تعالى: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزُّخْرُف : ٤] ، نجد مطلع سورة الشورى الذي تضمن بيان وحدة المصدر التي يشترك فيها القرآن الكريم مع الكتب السماوية الأخرى، والذي قرر عموم ملك الله عز وجل للسماوات والأرض وما فيها ومن فيها، في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٣- ٤]، مذيلًا بما يناسب تلك المعاني بقوله ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤] بقصر العلوّ والعظمة عليه سبحانه لا ينازعه فيهما أحد، فهو سبحانه يوحي إلى من يشاء بما يشاء، متصرّف في ملكه لا اعتراض لأحد عليه،[1] مهيمن على خلقه، متفرد في علوّه وعظمته، يفتقر الخلق جميعهم إليه ولا يفتقر سبحانه إلى أحد.

وكما جاء التذييل الخبريّ في مطلع الزخرف مؤكَّدًا، أُكّد التذييل الخبريّ في مطلع الشورى، لدفع الشكّ عن مصدر الوحي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وبيان علوّ شرعه على جميع الشرائع البشرية.ومن هنا

(١) ينظر: نظم الدرر، ١٧/٢٣٨-٢٣٩.

يظهر التعالق والتشاكل بين التذييلين في اشتراكهما في التأكيد على علو الوحي، وعلو مصدره، وعظمة الوحي ومصدره، فلما تقرر في الشورى اتصاف مصدر الوحي بالعلوّ المطلق، وأكّد ذلك بـــ(اسمية الجملة، والقصر)، لدفع كل شك عنه، قررت الزخرف ثبوت صفتي العلو والحكمة للوحي ثبوتًا راسخًا تامًّا مؤكدًا بجملة من المؤكدات كما تبيّن في موضعه.

ويأتي التذييل كذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]، وصفًا للذات الإلهية في ختام الشورى متناسبًا مع التذييل في مطلعها، ومتناسبًا مع التذييل في مطلع الزخرف التالية لها في ترتيب المصحف الشريف، فالعلي الحكيم في عليائه ما كان لبشر أن يكلمه ﴿إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشُّورَى : ٥١]، لأنه وحي -كما يقول أبو موسى- نازل من علياء الربوبية، فالله تعالى يوحي من عليائه بحكمة إلى من يصطفي من عباده، وهو وحي ظاهر العلوّ لا يشاده أحد إلا غلبه(١)، وهذا ما أكّده تذييل مطلع الزخرف، وعقّب عليه بالقسم بالكتاب المنزل: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزُّخْرُف : ٤]، فالعليّ الحكيم هو من أوحى بالقرآن العليّ الحكيم.

ومن التعالق والترابط أيضا ما نجده بين التذييل في الزخرف بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزُّخْرُف : ١٥]، والتذييل في الشورى في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشُّورَى : ٤٨] المذيّل لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ

(١) آل حم الشورى-الزخرف- الدخان دراسة في أسرار البيان، ص ٢٢٥.

أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةَ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الشُّورَى : ٤٨] ، فكما وصم الإنسان بالكفر في الزخرف لكفره بوحدانية الله تعالى، وصم بالكفر في الشورى، للدلالة على كفر آخر، فُسّر بأنه كفر بنعم الخالق جلّ شأنه على الإنسان، يستر نعم الله عليه، ويعدّد المصائب، [(١)] فكأن الشورى تعرض ضربًا من أضرب كفر الإنسان، وتعرض الزخرف ضربًا آخر، فبرز بذلك التشابه بين التذييلين، وإن كان المقصود بـ (كفور) في آية الشورى كفور بتوحيد الله ونعمه- كما ورد في تفسير آخر للآية الكريمة-[(٢)]، تكون علاقة تذييل الزخرف بهذا التذييل علاقة خاص بعام.

وكلا التذييلين المفيدين لتعليل السياق السابق لهما وردا في سياق تذكير الإنسان بنعم الله عزّ وجلّ التي لا تحصى عليه، غير أن المؤكدات تناقص عددها في تذييل سورة الشورى عنها في تذييل الزخرف وربما كان ذلك -والله أعلم- لأن الكفر الوارد في الزخرف أشدّ فداحة من الكفر المراد في الشورى (باعتبار التفسير الأول).

ومن الترابط تشابه التذييل والمذيَّل في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الزُّخۡرُف : ٢٠] تشابهًا لفظيًّا مع التذييل والمذيل في آية كريمة أخرى في سورة الجاثية ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ

(١) ينظر: تفسير الطبري، ٥٥٦/٢١.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير،٣٥١/١٧.

وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ففي حين عقب قوله في الزخرف: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ بالتذييل: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، ذُيل قوله تعالى في الجاثية: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾، بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾مما يثير التساؤل حول سبب الاختلاف بين الختاميْن، وهو ما بحثه الإمام الغرناطي وأرجعه إلى اختلاف السياق الذي وردت فيه كل آية منهما، ففي آية الزخرف احتج المشركون على عبادتهم للأصنام بأنهم غير مخيّرين في ذلك، وما يصدر عنهم هو برضا الرحمن ومشيئته، وهو رحمة لهم، فلو كانت الرحمة في تركهم معبوداتهم لشاء ذلك لهم، لأن الرحمن لا يكون منه إلا ما هو رحمة، فأخبر الله عنهم أنهم لم يقولوا ذلك (أي رضا الله بعبادتهم لأصنامهم) عن اعتقاد جازم منهم، إنما هو تخرص وتخمين لا علم وراءه.

أما آية الجاثية فتتحدث عن منكري البعث والنشور الذين نسبوا الموت والحياة للدهر لا لله، فأخبر تعالى عنهم أنهم لا متعلق لهم إلا مجرد ظن لا مستند له، ولا دليل لهم بأن الدهر هو المميت، وما استقر في أوهام بعض الناس من أن الزمان هو المتصرف إنما هو ظن مبني على التخييل ليس إلا، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].(١)

(١) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم الغرناطي، وضع حواشيه: عبد الغني الفاسي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢/٤٣٩-٤٤٠.

ومن الترابط ذلك التعالق بين التذييل بقوله تعالى في الزخرف: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ٣٢] لقوله :﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزُّخْرُف : ٣٢] ، والتذييل في الشورى بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشُّورَى : ١٩]لقوله :﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [الشُّورَى : ١٩]، اللذان وردا في سياق امتنان الله على عباده بالرزق، وتقرير أن الأرزاق تُقسم وفق مشيئة الله، ويلاحظ أن تذييل الزخرف جاء مؤكدًا لتذييل الشورى، فالذي يقسم النبوة بين الخلق هو القوي العزيز الذي بلغ الكمال في هاتين الصفتين، يرزق العباد وفق مشيئته وليس لأحد أن يعترض على قسمته.

ومن ذلك أيضا الترابط بين التذييل الوارد تعقيبًا على قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وبيان سوء مآل الكافرين بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزُّخْرُف : ٥٦] في الزخرف، وما قرره التذييل على حلقة من قصة موسى مع فرعون في الدخان بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدُّخَان : ٢٤] ، الذي جاء مؤكدًا على سوء عاقبتهم أيضًا بأسلوب خبريّ مؤكد بجملة من المؤكدات، ومعللًا للأمر الإلهيّ قبله: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان : ٢٤]، بينما جاء التذييل في فصلت على الإشارة الخاطفة لما كان من حال موسى عليه السلام مع قومه من اختلافهم في شأن التوراة كما اختلف مشركو قريش في شأن القرآن الكريم، على سبيل

تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم[1] مذيلًا بقاعدة إيمانية عظيمة من قواعد العدل الإلهي تسري على كل الأمم: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصِّلَت : ٤٦]، في صورة تذييل جارٍ مجرى المثل، خالٍ من المؤكدات كما هو حال التذييل في الزخرف.

ونجد أيضا في سياق تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والتوجه إليه بالخطاب التذييل في الزخرف بقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٠] لقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٠]، للتأكيد على استغراق القوم في الضلال، والتخفيف عن الرسول صلى الله عليه و سلم الذي تكاد تذهب نفسه عليه السلام حسرات عليهم لكفرهم وإعراضهم. وفي غافر نجد التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غَافِر : ٥٦] لقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ﴾ [غَافِر : ٥٥ - ٥٦]، قد ورد أيضا في سياق تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يخاطب الله تعالى نبيه، ويوجهه للصبر على التكذيب والإيذاء والإعراض، مذكرًا له بأن هؤلاء ما منعهم من الاستجابة إلا كبر وقر في نفوسهم، وترفع عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، واتباع من

(١) ينظر: تفسير النسفي، أبو البركات حافظ الدين النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، مراجعة: محيي الدين ديب مستو، بيروت، دار الكلم الطيب، ط الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ٣/٢٤٠.

سبقوهم بالإيمان، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأَنْعَام : ٣٣]، وما هم ببالغي شيئًا من كيدهم ومكرهم، ثم جاء التوجيه بالاستعاذة من قبيح ما يضمرونه، وما يُتوقع منهم من شرّ وأذى، وحذف متعلق الفعل (استعذ) لقصد تعميم الاستعاذة من كل ما يُخاف منه، وذُيّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غَافِر : ٥٦]، تذييلًا أفاد الأمر بالدوام على الاستعاذة، فهو وحده السميع لأقوالهم، البصير بظواهرهم وبواطنهم وما تفعله جوارحهم، وجاء التذييل مؤكدًا بإنّ، وبالقصر بضمير الفصل، وبإسميّة الجملة المفيدة لثبوت مدلولها ودوامه.(١)

ويأتي التذييل في سياق خطاب النبي عليه السلام مرة أخرى في فصلت، في ندبٍ إلى مكارم الأخلاق، وحثٍّ على الاستعاذة بالله التي بها يُدفع نزغ الشيطان بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فُصِّلَت : ٣٦] لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ﴾ [فُصِّلَت : ٣٣ - ٣٦]، فهو الذي يسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك(٢).

(١) ينظر: تفسير الطبري، ٢١/٤٤-٤٠٥، والتحرير والتنوير، ٢٤/١٧٢-١٧٥.

(٢) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزيز شمس،

ويلاحظ أنه لما كان المستعاذ منه في سورة "غافر" هو شرّ مجادلة الكفار في آياته، وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر جاء التذييل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غَافِر : ٥٦]، ولما كان المستعاذ منه في فصلت الشيطان، وهو غير مشاهد لنا، فإنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه، جاء التذييل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فُصِّلَت : ٣٦].(١)

وفي الشورى خوطب الرسول صلى الله عليه وسلم بما يتضمن توبيخ المشركين والتعريض بهم وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ [الشُّورَى : ٢٤] ، أي لو افتريت على الله كذبًا -كما يزعمون- لطبع على قلبك، وسلبك ما كان آتاك من القرآن، أو أمسك الوحي عنك، وقيل المعنى: يربط على قلبك فلا يشقّ عليك أذاهم، مذكرًا سبحانه بسنّة كونية من سننه، هي محو الباطل وإثبات الحق، بصادق وعده الذي لا يخلف، ثم جاء التذييل المفيد لتعليل هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشُّورَى : ٢٤]، بأسلوب خبريّ مؤّكد بإنّ، وباسميّة الجملة، لعلم الله تعالى بما تكنّه الضمائر، وما تنطوي عليه الصدور من سرائر.(٢)

الرياض، دار عطاءات العلم، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠١٩م، ١/١٦٦-١٦٧.

(١) ينظر: السابق، ١/١٦٨.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي، ٥/٨١، وتفسير أبي السعود،٨/٣١.

واشتركت الجمل التذييلية الثلاثة في الأسلوب الخبريّ، وفي المعنى العام الذي تضمنته وهو وعيد الكافرين، وتهديدهم، والتعريض بهم في سياق خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فكأن علم الله تعالى بما في صدورهم الذي أفاده تذييل الشورى، والتأكيد على ضلالهم في تذييل الزخرف مرتبط بالأمر بالاستعاذة في فصلت وغافر، ومُعلّل بأن السميع البصير العليم قادر على كفاية عبده صلى الله عليه وسلم من شرّ ما في صدورهم، ومن طغيانهم وضلالهم-والله تعالى أجلّ وأعلم-.

وفي سياق الوعيد الصريح للكافرين يأتي التذييل في الزخرف بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٦٥] ، مخبرًا عن سوء عاقبة الذين قالوا في عيسى ابن مريم مالم يصف به نفسه، من أنه عبد لله ورسوله.

ويأتي التذييل في الشورى في السياق ذاته بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ [الشُّورَى : ٢١] ، فبعد أن أنكر السياق السابق على المشركين شركهم، وأكّد أنهم لا يتبعون شرع الله القويم، بل يتبعون ما شرعت لهم شياطينهم من الجن والإنس من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم، وبعد أن بيّن أنه لولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم لقضي بينهم وبين المؤمنين في الوقت الحاضر[1] ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ﴾ [الشُّورَى : ٢١] ، جاء التذييل الخبري المذكور مؤكدًا هذا الوعيد بحرف التوكيد، وبالقصر بالتقديم (لهم عذاب)، وباسمية الجملة "لأن هذا الخبر

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، ٧/١٨١-١٨٢، وتفسير السعدي، ص ٧٥٧.

موجّه إليهم؛ لأنهم يسمعون هذا الكلام ويعلمون أنهم المقصودون به"[1]، وهم ينكرون أن يقع بهم العذاب.

ومن التذييل المتضمن لمعنى الوعيد المشابه لما سبق ما نجده في موضع آخر من سورة الشورى، في سياق عرض مشهد من مشاهد عذاب الكافرين يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الشُّورَى : ٤٥]، إذ ذُيّل المشهد بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ [الشُّورَى : ٤٥]، وهو خبر جارٍ مجرى المثل، مؤكَّد بافتتاحه بحرف التنبيه لأهميته، وبإن، واسمية الجملة، أُظهر فيه لفظ (الظالمِين) في مقام الإضمار لإفادة التعميم، وأُستعيرت فيه الإقامة (مقيم) للعذاب، للتأكيد على أنه عذاب ثابت لا يزول ولا يحول.[2]

ويلاحظ تكرر جمل التذييل المتضمنة لوعيد الكافرين في سور (آل حم) لأنها من السور

المكية، والسور المكية يكثر فيها الردّ على الكافرين، وإبطال حججهم، وتهديدهم، وبيان مصيرهم[3].

(١) التحرير والتنوير، ٧٧/٢٥.

(٢) ينظر: تفسير الطبري،٥٥٤/٢١، والتحرير والتنوير، ١٢٩/٥-١٣٠.

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، ٦٩/١، ومباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٠، ١٩٧٧م، ص ١٨٣.

إذ نجد أيضا التذييل بقوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غَافِر : ٦]، هذا التذييل المفيد للعموم بعد الخصوص الذي مثّل للكافرين من هذه الأمة بمن تقدمهم من الأمم، أي كما حل الهلاك بالأمم السابقة التي كفرت بربها ورسله، وجادلت بالباطل، فكذلك حقت كلماتي على جميع الكفار من تقدم منهم ومن تأخر أنهم أهل النار وسكانها، تحقيقًا لكلمات الله، وتصديقًا لما أخبرهم به من الوعيد.(١)

ونجد في الجاثية التذييل الوارد في ذات السياق بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجَاثِيَة: ١٠]، بعد عرْض صورة من صور التكبر والإفك والاستهزاء بآيات الله في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ [الجَاثِيَة : ٧ - ١٠]، مؤكِدًا للعذاب العظيم الذي ينتظر الظالمين حين ينعدم الولي والنصير، والمال والولد والولي، ويكون مصيرهم العذاب الأليم العظيم الجسيم المتناسب مع جسامة جرمهم وقبيح فعالهم، وجاء التذييل مؤكَدًا بالقصر بتقديم شبه الجملة (لهم عذاب)، وباسمية الجملة المفيدة لثبوت مدلولها ودوامه، تأكيدًا على سوء المصير- والعياذ بالله-.

(١) ينظر: تفسير ابن عطية، ٥٤٧/٤، والتحرير والتنوير، ٨٧/٢٤-٨٨.

الخاتمة

انتهى البحث إلى عدد من النتائج، من أهمها:

-أن التذيل بالخبر كان حاضرًا في جميع موضوعات السورة الكريمة، مما يشير لدوره الفاعل في ترسيخ المعنى وتمكينه.

- أن التذييل رام إثبات المعاني وتأكيد الدلالات، وجذب الانتباه إلى معنى الجملة المذيلة.

- أن جملة التذييل جاءت متناسبة مع السياق الذي وردت فيه، وشكّلت مظهرًا من مظاهر تماسك النص القرآني واتساقه وانسجامه.

- أن التأكيد الذي يفيده التذييل قد لا يأتي بصورة مباشرة، بل يمكن أن يُستقى بصورة غير مباشرة من أغراض أخرى مستفادة من جملة التذييل، مثل التعليل، والتفسير، والبيان والإيضاح.

- أن التذييل قد يكون بتعقيب أكثر من جملة بجملة، ولا يلزم أن تكون العبارة المذيَّلة مؤلفة من جملة واحدة فقط.

-أن التذييل مع أنه صورة من صورة الإطناب، إلا إنه يمتاز بالتكثيف الدلالي، فجملة التذييل تختزن الكثير من المعاني المعزِّزة للمعاني السابقة، وربما أضافت إليها معاني جديدة أخرى.

- كان التذييل في سورة الزخرف بعض آية في بعض النماذج، وورد آية قائمة برأسها في نماذج أخرى.

- تتبع البحث مواضع التذييل في الزخرف، وكان من اللافت للانتباه ما تبيّن له بعد الاستقراء من ورود معظم جمل التذييل بالأسلوب الخبري وليس

الإنشائي، حيث أحصى البحث ثمانية عشر تذييلًا خبريًّا، في مقابل ست جمل تذييل إنشائية فقط.

- سعى البحث إلى الكشف عن سبب ورود معظم مواضع التذييل في الزخرف بالأسلوب الخبري، وتوصل إلى أن الخبر من خصائصه إفادة التوكيد، وإذا ما جاء الخبر مؤكّدًا تآزر التوكيد المستفاد من الخبر مع التوكيد المستفاد من التذييل فيكون ذلك توكيدًا على توكيد، فضلًا عن إثراء الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الخبر في أكثر مواطنه لجملة التذييل، وعن مناسبة الخبر في التذييل لموضوع السورة الزاخر بعرض شبهات المشركين، وحججهم الباطلة، والردّ عليها وتفنيدها، علاوة على أن الأسلوب الخبريّ أكثر تناسبًا مع لغة التقرير والتأكيد والتحقيق التي تمثّلها جملة التذييل.

- جاءت الأخبار في جملة التذييل مؤكدة حينًا، وغير مؤكدة حينًا آخر بما يتناسب مع السياق، ويتلاءم مع مقصوده.

- أفاد الخبر في جملة التذييل أغراضًا بلاغية متنوعة مثل التقرير، والذم، والتبشير، والتعجب، والتعظيم، وغيرها.

- حفلت جملة التذييل الخبرية بالعديد من اللطائف والأسرار البلاغية، أشار البحث إلى بعض منها دون بعض تجنبًا للإطالة.

- اجتهد البحث في بيان أثر التذييل في تماسك البناء الداخلي للسورة الكريمة، وتآلف بنائها، واتضح له كيف انعطفت جمل التذييل بعضها على بعض في تناسق باهر.

- بين موضوعات مجموعة سور (آل حم) تشاكل وتعالق وعلاقات قربى، وهو ما برز بوضوح في تلك العلاقات المعنوية بين جمل التذييل في الزخرف، وجمل التذييل في سور (آل حم) الأخرى، مثل علاقة المشابهة، والتأكيد، والتعقيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٤م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم= تفسير أبي السعود، أبو السعود العمادي، بيروت، دار إحياء التراث.
- أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ.
- إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزيز شمس، الرياض، دار عطاءات العلم، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠١٩م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى، ١٤١٨هـ.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: محمد الفاضلي، بيروت، المكتبة العصرية، ط الأولى، ١٤٢٢هـ،٢٠٠١م.
- إيقاع الخبر والإنشاء في شعر مفدى زكريا، عبد الحميد بو فاس، مجلة العلوم الإنسانية، قسنطينة، الجزائر، جامعة الإخوة منتوري، العدد ٢٥، يونيو، ٢٠١٦م.
- البحر المحيط = تفسير ابن حيان، محمد بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر ١٤٢٠ هـ.

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع العدواني، تحقيق: حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة -المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- تفسير ابن عثيمين لسورة الزخرف، محمد بن صالح العثيمين، القصيم، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ط الأولى، ١٤٣٦هـ.
- تفسير القرآن العظيم= تفسير ابن كثير، إسماعيل بن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤١٩هـ.
- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف أ.د. مصطفى مسلم، الإمارات، جامعة الشارقة، ط الأولى، ٢٠١٠م.
- التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، السعودية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط٢، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، الفجالة- القاهرة، دار نهضة مصر، ط الأولى، ١٤١٩هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان=تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ.

- الجامع لأحكام القرآن =تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤-١٩٦٤م.
- الجملة الخبرية والجملة الطلبية تركيبًا ودلالة، حفيظة أرسلان، الأردن، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٤م.
- حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك، أبو العرفان محمد بن علي الصبان ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى 1417هـ - ١٩٩٧م
- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، لبنان، دار الفارابي، ط الثانية، ٢٠٠٧م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة-جدة، دار المدني، ط ٣، ١٩٩٢م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت، دار الكتب العلمية،١٤١٥هـ.
- سور الحواميم -دراسة بلاغية تحليلية، عبد القادر الحمداني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ، بيروت، المكتبة العصرية، ط الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية، عبد القاهر الجرجاني، شرح خالد الأزهري، تحقيق: البدراوي زهران، القاهرة: دار المعارف، ط٢.

- الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق، شهاب الدين القرافي، عالم الكتب، د.ط، د.ت.
- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية ،١٤١٩هـ.
- اللباب في علوم الكتاب، عمر بن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلى محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٩٩٨م.
- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٠، ١٩٧٧م.
- المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الفجالة ـ القاهرة، دار نهضة مصر.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز= تفسير ابن عطية، بن تمام بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.
- مختار الصحاح، أبو عبد الله الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ، بيروت– صيدا، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، ط الخامسة، ١٩٩٩م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل= تفسير النسفي، أبو البركات حافظ الدين النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، مراجعة: محيي الدين ديب مستو، بيروت، دار الكلم الطيب، ط الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

- معالم التنزيل في تفسير القرآن= تفسير البغوي، الحسين بن الفراء البغوي، تحقيق: عبد الرازق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث، ط الأولى، ١٤٢٠هـ.
- معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي، الأردن، دار عمار، ط٢، ١٤٢٨/٢٠٠٧م.
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، بيروت، عالم الكتب، ط الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- معاني النحو، فاضل السامرائي، الأردن، دار الفكر، ط الأولى، ١٤٢٠/٢٠٠٠م.
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، فخر الدين الرازي خطيب الرازي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط الثالثة، ١٤٢٠ هـ.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم الغرناطي، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية.
- الناسخ والمنسوخ، هبة الله المقري، تحقيق: زهير الشاويش، محمد كنعان ، بيروت، المكتب الإسلامي، ط الأولى، ١٤٠٤ هـ-
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.
- نقد النثر، قدامة بن جعفر، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مصر، المكتبة التوفيقية.